

الفصل الأول المذهب المالكي

(نشأة المذهب وانتشاره- أصول المذهب- مصطلحات المذهب- أعلام المذهب)

أولاً: نشأة المذهب المالكي وانتشاره :

"نشأ المذهب المالكي في "المدينة" التي كانت مصدر الإشعاع العلمي، إذ هي المقر الأصلي لرسول الله ﷺ، وصاحبته من المهاجرين والأنصار، فمن الطبيعي جداً -إذن- أن تكون هي المقر الأصلي لمدرسة الحديث، لأنها موطنه الحقيقي؛ ولأن بها الكثير من حفظة الحديث، فإذا كان فيها عمر بن الخطاب المتشدد في الأخذ بالحديث، فإن فيها عثمان بن عفان، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن عباس، وعائشة أم المؤمنين، وغيرهم ممن لا يميلون إلى الأخذ بالرأي.

وبعد هؤلاء جاء سعيد بن المسيب الذي كان على رأس هذه المدرسة، ومن بعده ابن شهاب الزهري، ونافع مولى عبد الله بن عمر، حتى جاء مالك الذي نشأ بـ"المدينة"، فحمل لواء هذه المدرسة، بل إن مدرسة "المدينة" كلها تركزت فيه" (١).

ولكن هذا لا يعنى أن الإمام مالك رحمه الله لم يأخذ بالرأي فبالنظر إلى "كتاب الموطأ نجد أن مالكا قد استعمل فيه الرأي بكفاية، لكى يسد به الحاجة التي تستدعيها الحياة العملية ولا تفي بها النصوص الموجودة وهنا أحس في نفسه بالقدرة الكافية على أن يبدي رأيه في الوقائع التي لا توجد فيها سنة مدينة أو إجماع مدني، واستعمل الرأي كثيراً، حتى قيل في سبيل الاتهام له إنه قد تعرق" (٢).

(١) على محمد معروض، عادل أحمد عبد الموجود، تاريخ التشريع الإسلامي، ج(٢)، (بيروت: دار الكتب العلمية ٢٠٠٠م)، ص ١٠٣.

(٢) على حسن عبد القادر، نظرة عامة في تاريخ الفقه الإسلامي، ط(٣)، (القاهرة: دار الكتب الحديثة، ١٩٦٥م)، ص ٢٥٧: ٢٥٨.

"فابن قتيبة يعد مالكا فقيه رأي، وأن المعاصرين لمالك رحمه الله كانوا يعتبرونه فقيه رأي، حتى ليسأل بعضهم في عصره من للرأي بالمدينة بعد ربيعة ويحيى بن سعيد؟ فأجاب بأن مالكا له من بعدهما" (١)

ولقد جمع الإمام مالك رحمه الله بين الإمامة في الحديث، والإمامة في الفقه "فقد كان في الحديث المرجع الثقة لكل من جمع الحديث وكتبه، والأصل الأول لجميع أصحاب الصحاح والسنن والمسانيد، كان المحدث الفاحص للرجال، الناقد المحص للمرويات يعمل على التوفيق بينها وبين كتاب الله وسائر أصول الشريعة.

وكان في الفقه الإمام الذي يرجع إليه، ويهتدى بهديه، وتوزن الآراء على رأيه فكان ذا بصيرة نافذة بالفتيا، واستنباط الأحكام، وقياس الأشباه بأشباهها، ومعرفة مصالح الناس" (٢).

ولُقّب الإمام مالك رحمه الله بإمام دار الهجرة وجلس رحمه الله بالمسجد النبوي مكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو المكان الذي كان يوضع فيه فراش النبي صلى الله عليه وسلم فقصدته الناس من كل حدب وصوب يطلبون منه الحديث والفقه والرأي والفتيا حتى ذاع صيته في شتى الأقطار الإسلامية.

وهكذا فقد أسس الإمام مالك رحمه الله دعائم المذهب المالكي بالمدينة وقد اعتمد في استخراج الأحكام على ظاهر النص، فسمى أتباعه بالظاهرية؛ لأنهم جعلوا أحكامهم منحصرة في النصوص بالإجماع، وهو ما عرف أيضاً بالمصالح المرسلة، أي كل مصلحة ضرورية للمجتمع ويحصل بها نفع أو تدرأ ضرراً، ولا تعارض النص" (٣).

(١) محمد أبو زهرة، مالك حياته وعصره - آراؤه وفقهه، ط(٢)، (القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٥٢م)، ص ٢٥١.

(٢) علي محمد معرض، عادل أحمد عبد الموجود، مرجع سابق، ج(٢)، ص ١٠٤.

(٣) عبد المنعم ماجد، تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى، ط(٢)، (القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٨٦م)، ص ١٨١.

وانتشر المذهب المالكي انتشاراً واسعاً فقد "غلب على الحجاز والبصرة، ومصر، وما والاها من بلاد أفريقية، والأندلس، وصقلية، والمغرب الأقصى، إلى بلاد من أسلم من السودان إلى وقتنا هذا، وظهر ببغداد ظهوراً كثيراً، وضعف بها بعد أربعمئة سنة، وظهر بنيسابور، وكان بها وبغيرها أئمةً ومدرسون" (١).

وكان لانتشار المذهب المالكي في تلك البلدان أسبابٌ عديدةٌ منها: "انتشر ذلك المذهب الجليل ببلاد الحجاز وغلب عليها وكان ذلك طبيعياً؛ لأنه مذهبٌ نشأ ببلاد الحجاز، وبطريقة أهل الحجاز في الاستنباط، فكان من الطبيعي أن يغلب عليهم، فإنه نبع بينهم، واستقى من بيئتهم، ونزع عن قوسهم" (٢).

ثم انتشر ذلك المذهب الجليل "بمصر في حياة الإمام مالك؛ نقله تلاميذه إليها (٣) "فابن القاسم وأشهب وابن وهب وأصبغ وغيرهم من المصريين كانوا حملة العلم المالكي وناشريه، فالمدونة التي تُعد الكتاب الأول لمسائل مالك وفتاويه صدرت عن ابن القاسم بمصر، أخذها عنه أولاً أسد بن الفرات، ثم أخذها منقحةً مراجعةً من بعده سُحنون" (٤).

ومن مصر "انتقل إلى تونس حتى أقصاه أسد بن الفرات الذي اعتنق المذهب الحنفي، بعدما كان مالكيًّا؛ فسَادَ المذهبُ الحنفي إلى أن جاء المعز بن باديس، فحمل أهل تونس وما والاها من بلاد المغرب على المذهب المالكي وما زال مسيطراً إلى الآن" (٥).

أما أهل الأندلس فقد "التزموا مذهب الأوزاعي حتى قدم عليهم الطبقة الأولى ممن لقي الإمام مالكا كزياد بن عبد الرحمن، وشيطون، والغازي بن قيس، وقرعوس، ونحوهم فنشروا مذهبه، وأخذ الأمير هشام الناس به، فالتزموا وحملوا عليه بالسيف" (٦).

(١) عبد الغنى الدقر، الإمام مالك بن أنس، سلسلة أعلام المسلمين (٢٣)، ط (٣)، (دمشق: دار القلم، ١٩٩٨م)، ص ٢٧٨.

(٢) محمد أبو زهرة، مرجع سابق، ص ٣٨٢.

(٣) علي محمد معرض، عادل أحمد عبد الموجود، مرجع سابق، ج (٢)، ص ١٠٥.

(٤) محمد أبو زهرة، مرجع سابق، ص ٣٨٣.

(٥) علي محمد معرض، عادل أحمد عبد الموجود، مرجع سابق، ج (٢)، ص ١٠٥.

(٦) محمد أبو زهرة، مرجع سابق، ص ٢٨٠.

ثانياً: أصول المذهب المالكي :

"إن مالك بن انس -رحمه الله- كان له منهجٌ في الاستنباط الفقهي لم يدونه ولكنه صرح بكلامٍ يُستفاد منه بعض أصول هذا المنهج الذي أرسى دعائمهُ تلامذته من بعده، الذين دونوا منهجَهُ، وهي الأصول التي قام عليها المذهب" (١).

"فمنهاج إمام دار الهجرة أنه يأخذ بكتاب الله تعالى أولاً، فإن لم يجد في كتاب الله تعالى نصاً أتجه إلى السنة، ويدخل في السنة عنده أحاديث رسول الله وفتاوى الصحابة وأقضيتهم، وعمل أهل المدينة، ومن بعد السنة بشتى فروعها يجيئ القياس، وهو إلحاق أمر غير منصوص على حكمه بأمر آخر منصوص على حكمه، لوصفٍ مشتركٍ بينهما يكون هو علة الحكم التي بنى عليها. ومع القياس المصلحة وسد الذرائع والعرف والعادات" (٢).

وفيما يلي نشير إلى كل أصلٍ من هذه الأصول :

١- الكتاب العزيز :

قال الشاطبي المالكي "إن الكتاب قد تقرر أنه على الشريعة، وعمدة الملة، وينبوع الحكمة، وآية الرسالة، ونور الأبصار والبصائر، وأنه لا طريق إلى الله سواه، ولا نجاه بغيره ولا تمسك بشيء يخالفه، وهذا كله لا يحتاج إلى تقرير أو استدلال لأنه معلومٌ من دين الأمة وإذا كان كذلك لزم ضرورة لمن رام الإطلاع على كليات الشريعة، وطمع في إدراك مقاصدها، واللاحق بأهلها أن يتخذ سميته، وأنيسه، وأن يجعله جليسه على مر الأيام والليالي نظراً وعملاً، لا اقتصاراً على أحدها، فيوشك أنه يفوز بالبغية، وأن يظفر بالطلبة ويجد نفسه من السابقين، وفي الرعيّل الأول، فإن كان قادراً على ذلك، ولا يقدر عليه إلا من

(١) على محمد معرض، عادل أحمد عبد الموجود، مرجع سابق، ج(٢)، ص ١٠٥.
(٢) محمد أبو زهرة، تاريخ المذاهب الإسلامية، (القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٩٦م)، ص ٤١٤.

زوال ما يعينه على ذلك من السنة المبينة للكتاب، وإلا فكلام الأئمة السابقين، والسلف المتقدمين آخذه بيده في هذا المقصد الشريف والمرتبة المنيفة" (١).

وقد "نظر مالك رحمه الله إلى القرآن تلك النظرة السامية، ولذا لم يزل قارئاً للقرآن، أو راوياً للحديث، أو مستنبطاً منهما فتاوى في المسائل التي تعرض له، أو يسأل عنها من طلابه، من مشارق الأرض ومغاربها" (٢).

"وقد ذكر المالكية أن مالكا كان يأخذ بنص القرآن وظاهره، أى: كان يأخذ بنصه الصريح الذى لا يقبل تأويلاً، ويأخذ بظاهره المتردد بين احتمالين فأكثر، وهو فى أحدهما أرجح، فيأخذ بالأرجح والأظهر ولا يؤوّل النص، ما دام لا يوجد دليل من الشريعة على وجوب التأويل" (٣)، "ويأخذ بمفهوم الموافقة وهو فحوى الكلام، وذلك بأن ينص القرآن الكريم على حكم ويفهم ما هو أقوى منه فى معنى هذا الحكم من هذا النص من غير أى مجهود عقلى، مثل قول الله تعالى: فى شأن أموال اليتامى ومن يأكلونها:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا
وَسَيَصْلُونَ سَعِيرًا ﴾ (٤)

فإن هذا النص يفهم منه بالأولى النهى عن تبديد أموال اليتامى والتقصير فى المحافظة عليها" (٥).

ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿ ... فَلَا تَقُلْ هُمَا أَفٌّ وَلَا تَهَرَّهُمَا ... ﴾ (٦)
فإنه يقتضى تحريم الضرب من باب أولى" (٧).

(١) محمد أبو زهرة، مالك حياته وعصره- آراؤه وفقهه، مرجع سابق، ص ٢١٩.

(٢) المرجع السابق، ص ٢١٩.

(٣) محمد أبو زهرة، تاريخ المذاهب الإسلامية، مرجع سابق، ص ٤١٤.

(٤) سورة النساء: الآية ١٠.

(٥) المرجع السابق، ص ٤١٤.

(٦) سورة الإسراء: من الآية ٢٣.

(٧) على محمد معرض، عادل أحمد عبد الموجود، مرجع سابق، ج(٢)، ص ١٠٧: ١٠٨.

ويأخذ الإمام مالك أيضاً بمفهوم "الإيماء أو التنبيه على العلة هو: أن يقترن الحكم بوصفٍ لولم يكن هذا الوصف للتعليل، لكان الاقتران بعيداً" (١).

"كما فى قوله تعالى :

﴿ قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خَنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهْلًا لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ... ﴾ (٢)

فإن هذا يُستفاد منه أن العلة فى التحريم أنه رِجْسٌ أى طعامٌ ردىٌّ وبىٌّ، ليحرم كل ما يمثله فى هذه الصفات" (٣).

ومنه قوله الله تعالى :

﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ... ﴾ (٤)

فقوله تعالى : "وَذَرُوا الْبَيْعَ" نهى عما يمنع من الواجب، وهو التشاغل بالبيع المانع من فعل الجمعة، فيكون ذلك إيماءً إلى أن العلة فى تحريم البيع هو التشاغل عن الجمعة" (٥).

ويأخذ الإمام مالك أيضاً بمفهوم المخالفة وهو "إثبات نقيض حكم المنطوق به للمسكوت عنه .

ومنه قوله تعالى :

﴿...وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا... ﴾ (٦)

(١) المرجع السابق، ج(٢)، ص ١٠٨.

(٢) سورة الأنعام : من الآية ١٤٥ .

(٣) محمد أبو زهرة، تاريخ المذاهب الإسلامية، مرجع سابق، ص ٤١٤ .

(٤) سورة الجمعة : من الآية ٩ .

(٥) على محمد معرض، عادل أحمد عبد الموجود، مرجع سابق، ج(٢)، ص ١٠٨ .

(٦) سورة النساء : من الآية ٤٣ .

فإن مفهومه إن اغتسلتم فلکم أن تقرّبوا الصلاة، فلولا أن الغسل يجزئ عن الوضوء، لما كان للمغتسل أن يقرب الصلاة" (١).

"وهكذا يأخذ بكل ما يفهم من الكتاب أيضاً، أو بإشارة أو تنبيه أو مفهوم، ويقدم الكتاب على ما عده من السنة. وكان يروى الحديث بسنده، ثم يرده لأنه يخالف كتاب الله تعالى. فروى حديث "إذا ولغ الكلب فى إناء أحدكم فليغسله سبعا، إحداهن بالتراب الطاهره"، ولم يأخذ به واعتبره غير موطأ غير ثابت، لأن القرآن الكريم أباح أكل صيده فى قوله تعالى :

﴿... وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ...﴾ (٢)

وقال : كيف يباح صيده، ويكون نجساً؟" (٣).

(٢) السنة :

تأتى "السنة فى المرتبة الثانية التى تلى الكتاب.

وهو يأخذ بالتواتر منها، وهو الذى رواه جمع يؤمن اتفاهم على الكذب، عن جمع مثلهم، حتى يصلوا بذلك إلى النبى ﷺ. ويأخذ بالمشهور منها، وهو ما رواه عن النبى ﷺ واحد من الصحابة أو اثنان أو أكثر لم يبلغوا حد التواتر، ثم رواه عن الصحابة عدد يؤمن اتفاهم على الكذب، أو رواه أحد أو أكثر من التابعين، ثم رواه من بعدهم عدد يؤمن تواطؤهم على الكذب فاشتهاره يكون فى عصر التابعين، أو تابعى التابعين، ولا غيره بالاشتهار بعد ذلك وهو يقارب التواتر فى قوته فى الاستدلال. ويأخذ بخبر الأحاد، وهو الذى لم يتواتر ولم يشتهر فى عهد التابعين، ولا فى عهد تابعى التابعين" (٤)

(١) المرجع السابق، ج ٢، ص ١٠٨.

(٢) سورة المائدة : من الآية ٤.

(٣) محمد أبو زهرة، تاريخ المذاهب الإسلامية، مرجع سابق، ص ٤١٥.

(٤) المرجع السابق، ص ٤١٥.

"ولكن يقدمون عليه عمل أهل المدينة"، ويردون بعضه في بعض الأحيان، ويقدمون خبر الواحد الثقة على القياس، يشترط أن يكون موافقاً لعمل أهل المدينة" (١).

(٢) عمل أهل المدينة :

"المراد بعمل أهل المدينة": هو اتخاذ عمل أهل المدينة" حجة يحتج بها، وكان مالك رحمه الله - يحتج بعمل الصحابة، والتابعين، وتابعيهم كذلك، وليس الصحابة وحدهم، ولا الفقهاء السبعة فقط" (٢)

"وقد نقل مالك إجماع أهل المدينة في موطنه على نيف وأربعين مسألة، ثم عملهم ثلاثة أنواع" (٣):

- أحدها: أن يُجمعوا على أمر ثم لا يخالفهم فيه غيرهم.
- الثاني: أن يُجمعوا على أمر ولكن يوجد لهم مخالف من غيرهم، وعن هذين القسمين يُعبر مالك بقوله: السنة التي لا اختلاف فيها عندنا.
- الثالث: ما فيه الخلاف بين أهل المدينة أنفسهم.

أما الأول فهو حجة عند الجميع يجب إتباعه وممن صرح بذلك ابن القيم وهو من الحنابلة الذين لا يسلمون الإجماع إلا في قليل من المسائل.

أما الثاني والثالث فمحل نزاع بين المالكية وغيرهم، على أن الذي هو حجة عندهم بلا خلاف هو عمل أهل المدينة النقلي لا الاجتهادي فالنقلي كنقلهم تعيين محل منبره وقبره ومحل وقوفه للصلاة عليه السلام، ونقلهم للأعيان كمقدار المد والصاع وأوقية الفضة وهذا حجة عند الجميع، وقد احتج به مالك على أبي يوسف بحضرة الرشيد فرجع عما كان يقوله إلى قول مالك، ومن هذا النوع نقلهم الأذان للصبح قبل الفجر، وتننية الأذان، وإفراد

(١) على محمد معرض، عادل أحمد عبد الموجود، مرجع سابق، ج(٢)، ص ١٠٨.

(٢) المرجع السابق، ج(٢)، ص ص ١١٤: ١١٥.

(٣) الثعالبي (محمد بن الحسن الحجري الثعالبي الفاسي، ت ١٣٧٦هـ)، الفكر السامي في الفقه الإسلامي، تحقيق أيمن صالح شعبان، ج(١)، القسم الأول والثاني، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٥م)، ص ص ٤٥٨: ٤٥٩.

الإقامة، وهذا النوع لا تظن أن مالكا انفرد بالعمل به، بل هو والمجتهدون فيه سواءً أما عملهم الذي طريقة الاجتهاد والتفقه لا النقل فهو محل نزاعٍ حتى عند المالكية .

قال القاضي عبد الوهاب: فيه ثلاثة أوجه:

الأول: أنه ليس بحجةٍ ولا يرجع به أحد الاجتهادين أصلاً على الآخر وعليه الأبهري، والقاضي أبو الفرج وغيرهما.

الثاني: أنه ليس بحجةٍ ولكن يرجح به اجتهادهم على اجتهاد غيرهم وبه قال بعض الشافعية.

الثالث: أنه حجةٌ كإجماعهم من طريق النقل ولكن لا تحرم مخالفته وعليه قوم من أصحابنا كابن المعدل.

(٤) فتوى الصحابي^(*):

"كان- مالك ﷺ يأخذ بفتوى الصحابي على أنها حديث واجب العمل به، ولذلك أثير عنه أنه عمل بفتوى بعض الصحابة في مناسك الحج، وترك عملاً للنبي باعتبار أن ذلك الصحابي ما كان يفعل ما فعل في مناسك الحج من غير أمر النبي ﷺ ، إذ إن المناسك لا يمكن أن تعرف إلا بالنقل. وروى أن مالكا ﷺ كان يأخذ بفتاوى كبار التابعين ولكنه لا يرفعها إلى مرتبة أقوال الصحابة، وبالأولى لا يرفعها إلى مرتبة ما ينسب إلى النبي ﷺ إلا أن يصادف ذلك إجماع أهل المدينة"^(١).

(٥) الإجماع :

يعرف الإجماعُ اصطلاحاً بأنه "اتِّفَاقُ عُلَمَاءِ الْعَصْرِ مِنْ أُمَّةٍ مُحَمَّدٍ ﷺ عَلَى أَمْرٍ مِنْ أُمُورِ الدِّينِ"^(٢).

(*) الصَّحَابِيُّ عِنْدَ الْمَالِكِيَّةِ: مَنْ اجْتَمَعَ بِالنَّبِيِّ ﷺ فِي حَيَاتِهِ، مُؤْمِنًا بِهِ، وَمَاتَ عَلَى ذَلِكَ. (القاموس الفقهي لغة واصطلاحاً، مرجع سابق، ص ٢٠٨).

(١) محمد أبو زهرة، تاريخ المذاهب الإسلامية، مرجع سابق، ص ٤١٧.

(٢) سعدي أبو جيب، مرجع سابق، ص ٦٦.

"ولعل مالكا رحمه الله أكثر الأئمة الأربعة ذكراً للإجماع واحتجاجاً به، ففي الموطأ نجد
فى مواضع كثيرة يذكر الحكم فى القضية على أنه الأمر المجتمع عليه، ويعتبر ذلك سنداً
يسوغ له أن يفتى به" (١).

(٦) القياس :

يعرف القياس اصطلاحاً بأنه "إلحاق الحكم الواجب لشيء ما بالشئ ما بالشئ
المسئول عنه، لشيء به بالشئ الذى أوجب الشئ له ذلك الحكم، أو لعلامة جامعة بينهما" (٢).
"وكان مالك رحمه الله يقيس على الأحكام المنصوص عليها فى القرآن الكريم، والأحكام
المستمدة من الأحاديث النبوية، وفى الموطأ الكثير من ذلك، نراه يأتى فى أول الباب
الأحاديث الثابتة عنه فيه، ثم بعد ذلك يفرع الفروع، ويلحق الأشباه بأشباهها، والأمثال
بأمثالها، وكذلك كان يقيس على الأمور التى رأى أنها موضع اجتماع أهل المدينة لأنها
عنده سنة فكان يذكر فى الموطأ الأمر المجتمع عليه، ثم يفرع الفروع أخذاً بمبدأ التساوى فى
الأحكام عند وجود التماثل فى الملابس التى تحيط بالمسائل التى كان يستفتى فيها" (٣).
"وفى الجملة كان يقيس على الأمور المنصوص على حكمها فى المصادر النقلية أو ما
هى فى حكم النقلية عنده، وهى الكتاب والسنة واجتماع أهل المدينة وفتاوى الصحابة" (٤).

(٧) الاستحسان:

"إن مالكا يرجح حكم المصلحة على حكم القياس، فلو كان القياس يقتضى إلحاق
الحكم غير المنصوص بحكم معين منصوص عليه، والمصلحة توجب غير ذلك - غلب جانب
المصلحة، والأخذ بالمصالح يسميه مالك: استحساناً" (٥)، ولذلك كان يقول "الاستحسان

(١) محمد أبو زهرة، مالك حياته وعصره - آراؤه وفقهه، مرجع سابق، ص ٢٧١.

(٢) سعدي أبو جيب، مرجع سابق، ص ٣١٢.

(٣) محمد أبو زهرة، مالك حياته وعصره - آراؤه وفقهه، مرجع سابق، ص ٢٩٠: ٢٩١.

(٤) المرجع السابق، ص ٢٩١.

(٥) على محمد معرض، عادل أحمد عبد الموجود، مرجع سابق، ج (٢)، ص ١١٣.

تسعةُ أعشار العلم" وإن التمسك بالقياس حيث لا نص قد يُضيق واسعاً، ولذلك قال ابن وهب "المغرق في القياس يكاد يفارق السنة"^(١).

"والاستحسان عند المالكية- بحسب سنده- على أنواع: فمنه ما يكون سنده العرف ومنه ما يكون سنده المصلحة، ومنه ما يكون سنده رفع الحرج وإيثار التوسعة، ومن ضروبه أيضاً: مراعاة الخلاف"^(٢).

"وفى الجملة إن مالكاً يخضع لحكم المصلحة إن لم يكن نصٌّ قرآنيٌّ أو حديثٌ نبويٌّ لأن التشريع ما جاء إلا لمصالح الناس، فكل نص شرعيٍّ مشتمل على المصلحة بلا ريب، فإن لم يكن نص فالمصلحة الحقيقية الملائمة لمقاصد الشرع من شرع الله تعالى"^(٣).

(٨) الاستصحاب؛

"هو ظن بقاء الحكم في الحال أو الاستقبال بناء على ثبوته في الماضي، وعدم قيام الدليل على تغييره. وهذا النوع من الأصول: اتفق العلماء على حجية بعضه، واختلفوا في حجية البعض الآخر. والمالكية أخذوا بهذا الدليل، وتوسعوا فيه"^(٤).

"والاستصحاب حجة عند مالك ما لم يقدِّم دليلٌ يعارضه"^(٥).

(٩) المصالح المرسلة؛

"المصلحة- عند جمهور الأصوليين- عبارة عن الثمرة المترتبة على الأحكام التي شرعها الله لعباده.

أو بتعبير آخر: عبارة عما قصده الشارع الحكيم لعباده من تشريع الأحكام من حفظ دينهم، ونفوسهم، وعقولهم، ونسلهم، وأموالهم حفظاً تاماً"^(٦).

(١) محمد أبو زهرة، تاريخ المذاهب الإسلامية، مرجع سابق، ص ٤١٨.
 (٢) على محمد معرض، عادل أحمد عبد الموجود، مرجع سابق، ج(٢)، ص ١١٣.
 (٣) محمد أبو زهرة، تاريخ المذاهب الإسلامية، مرجع سابق، ص ٤١٨.
 (٤) على محمد معرض، عادل أحمد عبد الموجود، مرجع سابق، ج(٢)، ص ١١٢.
 (٥) محمد أبو زهرة، مالك حياته وعصره -أراؤه وفقهه، مرجع سابق، ص ٣٠٥.
 (٦) على محمد معرض، عادل أحمد عبد الموجود، مرجع سابق، ج(٢)، ص ١١٧.

"ولا شك أن الأخذ بهذا المنهاج الذي سلكه فقهاء المالكية والحنابلة يجعل الشريعة الإسلامية خصبةً مثريةً، منتجةً مشبعةً لحاجات الناس في كل عصور وفي كل مكان"^(١).
 "فهما ينحوان ناحية الحكم بأن أوامر الدين والأخلاق والقوانين تتجه إلى إسعاد الناس، وأن المنفعة أو المصلحة تصلح مقياساً ضابطاً لكل ما هو مأمور به في الدين أو منهي عنه، كما أنها في نظر الفلاسفة الذين يقررونها، مقياسُ الفضيلة والرياسة في الأخلاق، والعدل والنظم في القانون"^(٢).

"ويشترط للعمل في الأخذ بالمصلحة المرسلّة شروط أهمها شرطان:

- الأول: ملائمتها لمقاصد الشرع .

- الثاني: كونها معقولةً في ذاتها"^(٣).

(١٠) سد الذرائع :

الدَّرِيعةُ اصطلاحاً "الْوَسِيلَةُ والسَّبَبُ إلى الشَّيْءِ" (٤)، "ومعنى سد الذرائع: رفعها ومؤدى الكلام أن وسيلة المحرم محرمة، ووسيلة الواجب واجبة، فالفاحشة حرام، والنظر إلى عورة الأجنبية حرام، لأنها تؤدي إلى الفاحشة، والجمعة فرض، فالسعي لها فرض وترك البيع لأجل السعي فرض أيضاً، والحج فرض، والسعي إلى البيت الحرام وسائر مناسك الحج فرض لأجله"^(٥).

وقد قسم علماء الأصول ما يؤدي إلى مفسدة، إلى أربعة أقسام^(٦):

- أولها: ما يكون أداؤه إلى مفسدةٍ مقطوعاً به كحفر بئرٍ خلف باب الدار بحيث يسقط فيها الداخل منه.

(١) محمد أبو زهرة، مالك حياته وعصره - آراؤه وفقهه، مرجع سابق، ص ٣١١.

(٢) المرجع السابق، ص ٣١١.

(٣) علي محمد معرض، عادل أحمد عبد الموجود، مرجع سابق، ج(٢)، ص ١١٨.

(٤) سعدي أبو جيب، مرجع سابق، ص ١٣٦.

(٥) محمد أبو زهرة، مالك حياته وعصره - آراؤه وفقهه، مرجع سابق، ص ٣٤٠.

(٦) محمد أبو زهرة، تاريخ المذاهب الإسلامية، مرجع سابق، ص ٤١٩.

- ثانيها: ما يغلب على الظن أداؤه إلى مفسدةٍ غالباً، كبيع العنب لمن تكون صناعته إعداداً للخمر.

- ثالثها: ما يكون أداؤه إلى المفسدة نادراً، كحفر بئر في موضع لا يؤذى. والنوعان الأولان محرمان بلا ريب عند مالك، والثالث ليس بحرام عنده، لأن الأحكام لا تناط بالنادر إذ النادر لا حكم له.

والقسم الرابع: ما يكون أداؤه إلى المفسدة كثيراً، ولكن ليس غالباً، كالبيع بالأجل الذي قد يؤدي إلى الربا، ويتخذ بعض الناس سبيلاً. وهذا يتنازعه عاملان الإذن الأصلي، وهو يقتضى الحل، وعامل ما قد يفضى إليه، وهذا يقتضى التحريم. ولذلك قرر المالكية صحة التصرف، ويترك قصد الربا لنية الفاعل. فإن قصده فهو آثم قلبه وعقابه عند الله، وإن لم يقصده فإنه لم يرتكب إثماً.

ويمكننا القول بأن "سد الذرائع محمودٌ ومعتبرٌ شرعاً، وهو أحد أرباع الدين كما يقول ابن قيم الجوزية- إذ التكليف: أمرٌ ونهيٌ".

والأمر نوعان:

أحدهما: مقصودٌ لنفسه.

والثاني: وسيلةٌ إلى المقصود.

والنهي نوعان:

أحدهما: ما يكون المنهى عنه مفسدةً في نفسه.

والثاني: ما يكون وسيلةً إلى المفسدة. فصار سد الذرائع المفضية إلى الحرام أحد أرباع الدين^(١).

(١) على محمد معرض، عادل أحمد عبد الموجود، مرجع سابق، ج(٢)، ص ص ١١٩: ١٢٠.

(١١) العادات والعرف:

"العرف هو الأمر الذي تتفق عليه الجماعة من الناس في مجارى حياتها، والعادة هى العمل المتكرر من الآحاد والجماعات، وإذا اعتادت الجماعة أمراً صار عرفاً لها، فعادة الجماعة وعرفها متلاقيان فى المؤدى، وإن اختلف مفهومها، فهما يتلاقيان فيما يختص بالجماعات"^(١).

"والفقه المالكي كالفقه الحنفى يأخذ بالعرف، ويعتبره أصلاً من الأصول الفقهية فيما لا يكون فيه نص قطعى، بل إنه أوغل فى احترام العرف أكثر من المذهب الحنفى، لأن المصالح وعامة الفقه المالكي فى الاستدلال، ولا شك أن مراعاة العرف الذى لا فساد فيه ضربٌ من ضروب المصلحة لا يصح أن يتركه الفقيه، بل يجب الأخذ به، والمالكية يترون القياس إذا خالف العرف"^(٢).

ولكن مراعاة العرف مقيرة بشروط أهمها ما يلي^(٣):

- ١- أن يكون العرف المراد تحكيمه فى التصرفات قائماً عند إنشائها، فلا عبرة للعرف الحادث بالنسبة إلى الماضى، سواء كان هذا العرف قولياً أو فعلياً.
- ٢- أن يكون العرف مطرداً أو غالباً.
- ٣- ألا يعارضه تصريحٌ يفيد عكس مضمونه، وهذا الشرط خاص بالعرف الذى ينزل منزلة النطق بالأمر المتعارف عليه.
- ٤- ألا يخالف نصاً من نصوص الشرع، فإذا جرى عرفُ الناس على عمل نهى عنه الشارع بخصوصه - كاختلاط الرجال بالنساء والتبرج - فإن هذا العرف لا اعتبار له.

(١) محمد أبو زهرة، مالك حياته وعصره - آراؤه وفقهه، مرجع سابق، ص ٣٥٣.

(٢) المرجع السابق، ص ٣٥٣.

(٣) على محمد معرض، عادل أحمد عبد الموجود، مرجع سابق، ج(٢)، ص ١٢١.

فإذا توفرت في العرف الشروط السابقة اعتبر؛ فهو قاعدة عظيمة من قواعد الفقه يظهر أثرها في المجال التطبيقي، ومراعاتها دليل صلاحية الشريعة لجميع الأزمنة والأمكنة.

"هذه أصول الإمام مالك رحمه الله التي استخرجها علماء مذهبه من جملة الفروع المأثور عنه. والتي وجدوا أن هذه الفروع تنفرع عنها، وترجع إليها، واستقام لديهم من جملة المصادر المختلفة أن مالكا رحمه الله كان يعتمد عليها في استنباطه"^(١).

"هذا وإن الإمام مالك قد فتح باب المصادر وأكثر منها، ولذلك كان مذهبه خصباً وكان فقيهاً مصلحياً يربط الأصول الشرعية بمصالح الناس"^(٢).

ثالثاً: مصطلحات المذهب المالكي:

هناك مجموعة من الألفاظ والمصطلحات الخاصة بفقهاء المالكية، وقد استخدمها أئمة السادة المالكية في أمهات مصادر المذهب، وعلى الباحث أن يكون على دراية بما تشمله هذه الألفاظ والمصطلحات من معانٍ حتى لا يختلط لديه فهم النص الفقهي وللوقوف على ما أراد الفقيه من معنى ودلالة.

وفيما يلي نعرض أهم هذه المصطلحات الخاصة بالمذهب المالكي، وشرح معانيها^(٣):

(١) الكتاب:

الكتاب إذا أُطلق: يريدون منه "الدونة" لصيرورته علماً بالغلبة عليها كالقرآن عند هذه الأمة، وكتاب سيبويه عند النحويين، وكتاب القدوري عند الحنفية.

(١) محمد أبو زهرة، مالك حياته وعصره - آراؤه وفقهه، مرجع سابق، ص ٣٥٩.

(٢) محمد أبو زهرة، تاريخ المذاهب الإسلامية، مرجع سابق، ص ٤١٩.

(٣) راجع في ذلك:

- إبراهيم المختار أحمد عمر الزيلعي، المدخل الوجيز في اصطلاحات مذهب السادة المالكية، تحقيق: عبد الله

توفيق الصباغ، (القاهرة: مكتبة النور، ١٩٩٣م)، ص ٧: ١٨.

- حمدي عبد المنعم شلبي، مرجع سابق، ص ١٨: ٢٧.

(٢) الأمهات:

الأمهات أربع: "المدونة" لسُحنون، و"المستخرجة" لمحمد بن أحمد العتبي الأندلسي وتعرف بالعتبية، و"الموازية" لمحمد بن إبراهيم الاسكندري المعروف بابن مواز و"الواضحة" في السنن والفقهِ لعبد المالك بن حبيب السلمي.

(٣) الدواوين:

ويقال الدواوين سبعة:

٥- "المختلطة" لابن القاسم . الأربعة الأول .

٦- "المبسوطة" للقاضي إسماعيل . ٧- "المجموعة" لابن عيوس .

(٤) الفقهاء السبعة:

المراد بالفقهاء السبعة: سعيد بن المسيب، وعروة بن الزبير، والقاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق، وخارجة بن زيد بن ثابت، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود وسليمان بن يسار، واختلف في السابع ف قيل أبو سلمه بن عبد الرحمن بن عوف، وقيل سالم بن عبد الله، وقيل أبو بكر بن عبد الرحمن.

(٥) العبادة:

العبادة يريدون بهم أربعة، عبد الله بن الزبير، وعبد الله بن عمرو بن العاص وعبد الله بن عمر بن الخطاب، وعبد الله بن عباس.

(٦) المديون:

المديون من أتباع مالك يشار بهم إلى كنانة، وابن الماجشون، ومطرف، وابن نافع وابن مسلمة، ونظرائهم.

(٧) المصيرين:

المصريون، يشار بهم إلى ابن القاسم، وأشهب، وابن وهب، وأصبغ بن الفرج، وابن عبد الحكم ونظائرهم.

(٨) العراقيون:

العراقيون يشار بهم إلى القاضى إسماعيل بن إسحاق، والقاضى ابن الحسين بن القصار، وابن الجلاب، والقاضى عبد الوهاب، والقاضى أبى الفرج، والشيخ أبى بكر الأبهري ونظائرهم.

(٩) المغاربة:

المغاربة يشار بهم إلى الشيخ ابن أبى زيد وابن القابسى، وابن اللباد والباجى واللخمى، وابن محرز، وابن عبد البر، وابن رشد، وابن العربى، والقاضى سند والمخزومى وابن شبلون، وابن شعبان.

(١٠) القريناه:

القرينان أشهب وابن نافع، فقرن أشهب مع ابن نافع لعدم بصره.

(١١) الأخوان:

الأخوان: مطرف، وابن الماجشون، وسميا بذلك لكثرة ما يتفقان عليه من الأحكام وملازمتها.

(١٢) المحمداه:

المحمدان: ابن المواز وابن سحنون، وعند ابن عرفة ابن المواز، وابن عبد الحكم.

(١٣) المحمّدون:

المحمدون أربعة: وهم الذين اجتمعوا فى عصر واحدٍ من أئمة مذهب مالك ما لم يجتمع مثلهم فى زمان، اثنان قرويان: ابن عبدوس، وابن سحنون، واثنان مصريان: ابن عبد الحكم، وابن المواز.

(١٤) القاضيه:

القاضيان هما: ابن القصار، وعبد الوهاب.

(١٥) الإمام:

الإمام المأزى.

(١٦) الشيخ:

الشيخ: يطلق على ابن أبي زيد.

(١٧) الصقليان:

الصقليان: ابن يونس، وعبد الحق.

(١٨) الشيخان:

الشيخان: أبو محمد عبد الله بن أبي زيد، وأبو الحسن على القاسبي.

(١٩) الروايات والأقوال:

الروايات: أقوال مالك، والأقوال: أقوال أصحابه، ومن بعدهم من المتأخرين، كابن

رشد، ونحوه.

(٢٠) الاتفاق والإجماع والجمهور:

المراد بالاتفاق: اتفاق أهل المذهب، وبالإجماع: إجماع العلماء، وإذا قالوا الجمهور

عنوا بهم الأئمة الأربعة.

(٢١) المذهب:

المذهب فى الأصل هو مكان الذهاب ثم صار حقيقةً عرفيةً فيما ذهب إليه إمامٌ من

الأئمة والمذهب يطلق عند المتأخرين من أئمة المذهب على ما به الفتوى، ومن إطلاق

الشيء على جزئه الأهم، كالحج عرفة، لأن ذلك هو الأهم عند الفقيه المقلد.

(٢٢) المراد بمذهبه:

المراد بمذهبه ما قاله هو وأصحابه على طريقته، ونسب إليه مذهباً، كونه على

قواعده، وأصله الذى بنى عليه مذهبه، وليس المراد ما ذهب إليه وحده دون غيره من أهل

المدينة.

(٢٣) الطريقة والطرق:

الطريقة: عبارة عن شيخ، أو شيوخ يروون المذهب كله على ما نقلوه. و"الطرق" عبارة عن اختلاف الشيوخ في كيفية نقل المذهب.

(٢٤) المتأخرون والمتقدمون:

أول طبقات المتأخرين في اصطلاح المذهب: ابن أبي زيد ومن بعده، والمتقدمون من قبله.

(٢٥) الأظهر والمشهور والصحيح والأصح ومقابل ذلك :

إذا قيل الأظهر كان فيه إشعار بأن مقابله فيه ظهور أيضاً لأن الأظهر اسم تفضيل يقتضى المشاركة وزيادة. والمشهور يقابله الغريب، والصحيح يقابله الضعيف. والأصح يشعر بصحة مقابلة لأنه اسم تفضيل كأظهر.

رابعاً: أعلام المذهب المالكي :

نحاول فيما يلي الترجمة لأهم أعلام المذهب المالكي عينة الدراسة وذلك على النحو

التالى:

١- الترجمة للإمام مالك بن أنس مؤسس المذهب (ت ١٧٩هـ).

٢- الترجمة للإمام سحنون (ت ٢٤٠هـ).

٣- الترجمة للإمام ابن الحاج (ت ٧٣٧هـ).

٤- الترجمة للإمام خليل (ت ٧٦٧هـ).

٥- الترجمة للإمام المواق (ت ٨٩٧هـ).

٦- الترجمة للإمام الحطاب (ت ٩٥٤هـ).

وتعد المصادر التى قامنا بتحليلها وجعلها حدوداً لدراسته والخاصة بالأئمة الستة

السابق ذكرهم عينة صادقة التمثيل لمراحل تطور الفقه المالكي وتحتل مكان الصدارة بين

مصادر المذهب المالكي، فبعض هذه المصادر قد قامت حولها الشروح والحواشي مثل كتاب "مختصر خليل".

والأعلام السابق ذكرهم يمثلون بصدق مراحل التطور الزمني للمذهب المالكي فهم يمثلون الطبقات المختلفة لأعلام المذهب.

وفيما يلي نعرض الترجمة لأهم أعلام المذهب المالكي عينة (لدراسة):

مالك بن أنس :

اسمه : هو شيخ الإسلام حجة الأمة إمام دار الهجرة الإمام الحافظ المحدث الفقيه أمير المؤمنين في الحديث "مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر بن عمرو بن الحارث، وكنيته أبو عبد الله الأصبحي (*)، المدني (١).

"أحد أئمة المذاهب المتبعة في العالم الإسلامي" (٢).

مولده: ولد الإمام مالك رحمه الله سنة "ثلاثٍ وتسعين من الهجرة" (٣). وهذا الذي ذهب إليه أكثر المؤرخين للرجال.

(*) الأصبحي: يفتح الألف وسكون الصاد المهملة وفتح الباء المنقوطة بنقطة في آخرها حاء مهملة، هذه النسبة إلى أصبح واسمه الحارث بن عوف بن مالك بن زيد بن سداد بن زرة وهو من يعرب قحطان، وأصبح صارت قبيلة السمعاني (الإمام أبو سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي، ت ٥٦٢هـ)، الأنساب، تحقيق عبد الله عمر البارودي، ج(١)، (بيروت: دار الجنان، ١٩٨٨م)، ص ١٧٤.

(١) راجع في ذلك:

- عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين، ج ١١، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، د.ت)، ص ١٦٨.
- القيسي (شمس الدين محمد بن عبد الله بن محمد القيسي الدمشقي، ت ٨٤٢هـ)، توضيح المشتبه في ضبط أسماء الرواه وأنسابهم وألقابهم وكناهم، تحقيق: محمد نعيم العرقوسي، ج(٣)، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٩٣م) ص ٣٥٤.
- السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن السيوطي الشافعي، ت ٩١١هـ)، لب اللباب في تحرير الأنساب، د.ن، ص ١٧.
- ابن حجر العسقلاني (أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، ت ٨٥٢هـ)، طبقات المدلسين تحقيق: عاصم بن عبد الله القريوني، ج ١، (عمان: مكتبة المنار، ١٩٨٣م)، ص ٢٣.
- مصطفى الشكعة، الإمام مالك بن أنس، الأئمة الأربعة (٢)، (القاهرة: دار الكتاب المصري، ١٩٨٣م)، ص ٣.
- عبد الحليم الجندي، مالك بن أنس، (القاهرة: دار المعارف، ١٩٨٣م)، ص ٣.

(٢) عمر رضا كحالة، مرجع سابق، ج(١١)، ص ١٦٨.

(٣) ابن فرحون (الإمام القاضي إبراهيم بن نور الدين المعروف بابن فرحون المالكي، ت ٧٩٩هـ)، الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، تحقيق: مأمون بن محيي الدين الجنان، ج(١)، (بيروت: دار الكتب العلمية ١٩٩٦م)، ص ٥٩.

بلدته:

كان مولد الإمام مالك بالمدينة وبها أقام حتى توفى رحمه الله، وقد كانت المدينة منبع العلم ومجمع العلماء "وهي مدينة الرسول ﷺ، ولها تسعة وعشرون اسماً المدينة وطيبة وطابة، والمسكينة، والعذراء، والجابرة، والمحبة، المحببة والمحبورة، ويثرب، والناجية والموفية وأكالة البلدان، والمباركة، والمحبفوفة، والمسلمة، والمجنة، والقدسية، والعاصمة والمرزوقة والشفافية، والحيرة، والمحبوبة، والمرحومة، وجابرة، والمختاره، والمحرمة، القاصمة وطابا"^(١) "إن الحياة في المدينة كانت تناسب طبيعة مالك فقد ظلت المدينة بعيداً عن مضطرب التيارات الفكرية التي تصطبغ في غيرها من مدائن المسلمين، فهي تعيش على السنن المتوارثة وتنأى بنفسها عن صراع العقائد، والجدل الفلسفي، وكلام الباحثين فيما وراء الغيب، وكل ما أنتجته ترجمة الفلسفات اليونانية والهندية والفارسية. إنها حقاً قرية مؤمنةٌ وربٌ غفورٌ.

ومالك بن أنس رجل يحب الدعة وينشد السكينة، ويعكف على درس المطمئن. وهو يكره الجدل واللجاج والصخب والمناظرة، والكلام فيما لا ينفع الناس في حياة كل يوم"^(٢).
رحلته في طلب العلم :

طلب الإمام مالك بن أنس رحمه الله العلم في سنٍ مبكرةٍ .
" قال مطروق .

قال مالك: قلت لأمي أذهب فأكتب العلم .

فقالت : تعالي فالبس ثياب العلم. فألبستني ثياباً مشمرةً ووضعت الطويلة على رأسي وعممتني فوقها.

(١) ياقوت الحمري (الإمام شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي، ت ٦٢٦هـ)، معجم البلدان، تحقيق: فريد عبد العزيز الجندي، ج(٥)، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٠م، ص ٩٨.
(٢) عبد الرحمن الشرقاوي، الإمام مالك بن أنس، أئمة الفقه التسعة (٤)، ط(٢)، (بيروت: دار العصر الحديث ١٩٨٥م)، ص ٨٥.

ثم قالت : إذهب إلى ربيعة فتعلم من أديه قبله علمه.

وقال ابن القاسم: أفضى بمالك طلب العلم إلى أن نُقَصَّ سقف بيته فباع خشبه، ثم مالت عليه الدنيا بعد^(١).

وقال الزبيرى: "رأيت مالكا في حلقة ربيعة وفي أذنه شئف وهذا يدل على ملازمته الطلب في صغره. وكان يقول كتبت بيدي مائة ألف حديث"^(٢).

ويروى عن مالك بن أنس أنه كانت لديه هممة في طلب العلم، فمن ذلك قوله: "إن كان الرجل ليختلف للرجل ثلاثين سنة يتعلم منه، فظننا أنه يريد نفسه مع ابن هرمز"^(٣).
وقال ابن عينية: "ما رأيت أحداً أجود أخذاً للعلم من مالك"^(٤).

ونرى أن رحلات مالك بن أنس رحمه الله في طلب العلم لم تكن كثيرة، ولذلك أسباب منها أنه كان يعيش في المدينة طيلة حياته، وقد كانت هي محج العلماء من كل البلدان فكان يفد إليها علماء الأمصار ليظفروا بما عند أهل المدينة من فضل وعلم، ذلك لأن الكثرة من كبار الصحابة أقاموا فيها وأخذ عنهم من كبار التابعين المقيمين بها^(٥) وقد يكون من الأسباب الأخرى التي منعتة من الرحلة الفقر، فمما يروى عنه رحمه الله "لا يبلغ أحداً ما يريد من هذا العلم حتى يضر به الفقر، ويؤثره على كل حاجة"^(٦)، وعنه أيضاً رحمه الله "جالست ابن هرمز ثلاث عشرة، كنا نجلس في صحن مسجد النبي ﷺ حتى اتخذت سراويل محشواً"^(٧).

(١) القاضي عياض (القاضي أبو الفضل عياض بن موسى اليحصبي، ت ٥٤٤هـ)، ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، تحقيق: محمد سالم هاشم، ج(١)، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٨م)، ص ٥٤.

(٢) ابن فرحون، مرجع سابق، ج(١)، ص ٦٣.

(٣) القاضي عياض، مرجع سابق، ج(١)، ص ٥٥.

(٤) ابن فرحون، مرجع سابق، ج(١)، ص ٦٤.

(٥) عبد الغنى الدقر، مرجع سابق، ص ٥٩.

(٦) الأصفهاني (الحافظ أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصفهاني، ت ٤٣٠هـ)، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، ج(٦) (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٨م)، ص ٣٣١.

(٧) أبو حاتم الرازي (شيخ الإسلام أبي محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم محمد بن أدريس بن المنذر التميمي الحنظلي الرازي، ت ٣٢٧هـ)، الجرح والتعديل، ج(١)، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٩٥٢م)، ص ٢٨.

شيوخه :

لقد كان السلف الصالح ومنهم الإمام مالك بن أنس رحمه الله يتلقون العلم من أفواه العلماء مباشرةً، فكانت وسيلتهم في ذلك حضور مجالس العلم، فمنهم من قصرت همته في الطلب بحيث لا يتجاوز شيوخه عدد أصابع اليد، ومنهم من زاد على ذلك، ومن هؤلاء إمامنا مالك بن أنس رحمه الله، فمشايخه كثيرون، وإننا نجد أنه كلما زاد عدد الشيوخ كلما ازداد العلم، ومن شيوخه رحمه الله^(١):

- ١- إبراهيم بن أبي عُبَيْلَةَ المَقْدِسِيِّ .
- ٢- إبراهيم بن عُقْبَةَ .
- ٣- أبو الأَسْوَد محمد بن عبد الرَّحْمَنِ بن تَوْفَل .
- ٤- أبو الرَّجَال محمد بن عبد الرحمن الأنصاري .
- ٥- أبو الرُّبَيْر المَكِّي .
- ٦- أبو بكر بن عمر بن عبد الرحمن بن عبد الله بن عُمر بن الخَطَّاب .
- ٧- أبو بكر بن نافع مولى ابن عمر .
- ٨- أبو سُهَيْل نافع بن مالك .
- ٩- أبو عُبيد حاجِب سليمان بن عبد الملك .
- ١٠- أبو لُبَلَى بن عبد الله بن عبد الرحمن بن سَهْل الأنصاري .
- ١١- إسحاق بن عبد الله بن أبي طَلْحَةَ .
- ١٢- إسماعيل بن أبي حكيم .
- ١٣- أيوب أبي تَمِيمَةَ السَّخْنِيَّيَّي .
- ١٤- أيوب بن حُبَيْب الرُّهْرِيِّ .

(١) المَزْي (الحافظ جمال الدين أبي الحجاج يوسف المَزْي، ت ٧٤٢هـ)، تهذيب الكمال في أسماء الرجال، تحقيق: أحمد على عبيد، حسن أحمد آغا، ج (١٧)، (القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٩٤م)، ص ص ٣٨١ : ٣٨٢).

- ١٥- ثور بن زيد الدبلي .
- ١٦- جعفر بن محمد الصادق .
- ١٧- حبيب بن عبد الرحمن .
- ١٨- حميد الطويل .
- ١٩- حميد بن قيس المكي الأعرج .
- ٢٠- داود بن الحصين .
- ٢١- ربيعة بن أبي عبد الرحمن .
- ٢٢- زياد بن أبي زياد مولى ابن عيَّاش .
- ٢٣- زياد بن سعد .
- ٢٤- زيد بن أبي أنيسة .
- ٢٥- زيد بن أبي رباح .
- ٢٦- زيد بن أسلم .
- ٢٧- سالم أبي النضر .
- ٢٨- سعد بن إسحاق بن كعب بن عجرة .
- ٢٩- سعيد بن أبي سعيد المقبري .
- ٣٠- سعيد بن عمرو بن شرجبيل .
- ٣١- سلمة بن دينار المدني .
- ٣٢- سمي مولى أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام .
- ٣٣- سهيل بن أبي صالح .
- ٣٤- شريك بن عبد الله بن أبي نمر .
- ٣٥- صالح بن كيسان .
- ٣٦- صفوان بن سليم .

- ٣٧- صَيْفَى مولى أبى أيوب.
- ٣٨- صَمْرَةَ بن سعيد المازنى .
- ٣٩- طَلْحَة بن عبد الملك الأيلى .
- ٤٠- عائشة بنت سعد بن أبى وقاص .
- ٤١- عامر بن عبد الله بن الربير .
- ٤٢- عبد الرحمن بن حرملة الأسلمى .
- ٤٣- عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبى صعصعة.
- ٤٤- عبد الرحمن بن محمد بن أبى بكر الصديق .
- ٤٥- عبد الكريم بن أبى مغارق البصرى أبى أمية .
- ٤٦- عبد الكريم بن مالك الجبرى .
- ٤٧- عبد الله بن أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم .
- ٤٨- عبد الله بن الفضل الهاشمى .
- ٤٩- عبد الله بن دينار .
- ٥٠- عبد الله بن دكوان أبى الرناد .
- ٥١- عبد الله بن عبد الرحمن بن محمد أبى طوالة .
- ٥٢- عبد الله بن عبد الرحمن. ويقال: إنه ابن أبى ذباب .
- ٥٣- عبد الله بن عبد الله بن جابر بن عتيك .
- ٥٤- عبد الله بن يزيد بن هُرمز .
- ٥٥- عبد الله بن يزيد مولى الأسود بن سفيان .
- ٥٦- عبد المجيد سهيل بن عبد الرحمن بن عوف .
- ٥٧- عبد ربّه بن سعد الأنصارى .
- ٥٨- عبيد الله بن أبى عبد الله الأعر .

- ٥٩- عطاء الخراساني .
٦٠- علقمة بن أبي علقمة .
٦١- عمرو بن مسلم بن عبد الرحمن بن يعقوب .
٦٢- عمرو مولى المطلب .
٦٣- الفضيل بن أبي عبد الله .
٦٤- قطن بن وهب .
٦٥- كثير بن زيد الأسلمي .
٦٦- كثير بن فرقد .
٦٧- محمد بن أبي أمامه بن سهل .
٦٨- محمد بن أبي بكر النقفى .
٦٩- محمد بن المنكر .
٧٠- محمد بن حبان .
٧١- محمد بن زيد بن المهاجر بن قنفذ .
٧٢- محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي صعصعة .
٧٣- محمد بن عمار بن عمرو بن حرم .
٧٤- محمد بن عمرو بن ححلة .
٧٥- محمد بن مسلم بن شهاب الزهري .
٧٦- مخزومة بن سليمان .
٧٧- مسلم بن أبي مريم .
٧٨- المسور بن رفاعة القرنطي .
٧٩- موسى بن أبي تميم .
٨٠- موسى بن عقبة .

- ٨١- موسى بن مَيْسَرَةَ مولى بن الدَّيْل .
٨٢- نافع مولى ابن عمر .
٨٣- نُعَيْم بن عبد الله الْمُجْمِر .
٨٤- هشام بن عُروَةَ .
٨٥- هشام بن هشام بن عُثْبَةَ بن أبي دَقَّاس .
٨٦- هلال بن أبي مَيْمُونَةَ .
٨٧- وَهْب بن كَيْسَانَ .
٨٨- يحيى بن سعيد الأَنْصَارِيِّ .
٨٩- يزيد بن رُومان .
٩٠- يزيد بن زياد بن أبي زياد مولى ابن عِيَّاش .
٩١- يزيد بن عبد الله بن الهاد .
٩٢- يزيد بن عبد الله بن حُصَيْفَةَ .
٩٣- يزيد بن عبد الله بن قُسَيْط .
٩٤- يونس بن يوسُف بن حِمَّاس .
- وإذا نظرنا إلى شيوخه فسنجد فيهم المدني، والمكي، والكوفي، والبصري، وغيرهم وهذا يدل على مدى همته في طلب العلم رحمه الله.

تلاميذه :

لمالك بن أنس رحمه الله تلاميذٌ كثيرون، يقصر الجهد دون عددهم، فقد كان بجانب كونه محدثاً كبيراً، فهو فقيهٌ عظيمٌ، بنشر علمه، ويحدث به، ولا يبخل به أبداً، فطوال حياته المدينة كان يجلس في المسجد النبوي يعلم الناس أمور دينهم وديناهم ويفتيهم ويجيب

مسائلهم، ويروى لهم حديث رسول الله ﷺ، فاجتمع في مجلسه الفئام من الناس ينشدون العلم من فم هذا الحبر الجليل، فمن تلاميذه رحمه الله^(١).

- ١- إبراهيم بن طهمان
- ٢- إبراهيم بن عبد الله بن قُرَيْم الأنصاري قاضي المدينة
- ٣- إبراهيم بن عمر بن أبي الوزير
- ٤- أبو إسحاق الفرّارِي
- ٥- أبو الوليد الطَّيَالِسِي
- ٦- أبو حذافة أحمد بن إسماعيل السَّهْمِي
- ٧- أبو عاصم الضَّحَاك بن مَحْد
- ٨- أبو عامر العَقْدِي
- ٩- أبو عليّ الحَنَفِي .
- ١٠- أبو غَسَّان محمد بن يحيى الكِنَائِي .
- ١١- أبو قُتَيْبَة سَلَم بن قُتَيْبَة .
- ١٢- أبو لبيده محمد بن غِيَاث السَّرْجِسِي .
- ١٣- أبو مُسَهَّر عبد الأعلى بن مُسَهَّر العَسَّانِي .
- ١٤- أبو مُصَنَّب أحمد بن أبي بكر الرُّهْرِي .
- ١٥- أبو نُبَاتَة يُوُس بن يحيى المَدَنِي .
- ١٦- أبو نُعَيْم الفَضْل بن دُكَيْن .
- ١٧- أحمد بن عبد الله بن يُوُس .
- ١٨- إسحاق بن سُلَيْمَان الرَّاظِي .
- ١٩- إسحاق بن عيسى بن الطَّيَّاع .

(١) المرجع السابق، ج (١٧)، ص ص ٣٨٣: ٣٨٤.

- ٢٠- إسحاق بن محمد الفَرَوِيُّ .
- ٢١- إسماعيل بن أبي أُوَيْس .
- ٢٢- إسماعيل بن عُثَيْب .
- ٢٣- إسماعيل بن موسى الفَرَارِيُّ .
- ٢٤- أَشْهَبُ بن عبد العزيز .
- ٢٥- بِشْرُ بن عُمَرَ الرَّهْرَانِيُّ .
- ٢٦- جُوَيْرِيَّةُ بن أسماء .
- ٢٧- حبيب بن أبي حبيب كاتب مالك .
- ٢٨- الحُسَيْن بن الوليد النَّيْسَابُورِيُّ .
- ٢٩- حَمَّادُ بن مَسْعُودَةَ .
- ٣٠- خالد بن عبد الرحمن الخُرْسَانِيُّ .
- ٣١- خالد بن مَخْدَمُ القَطَوَانِيُّ .
- ٣٢- خلف بن هشام البَرَّار .
- ٣٣- داود بن عبد الله بن أبي الكَرَمِ الجَعْفَرِيُّ .
- ٣٤- دُوَيْبُ بن غمامة السَّهْمِيُّ .
- ٣٥- رَوْحُ بن عُبَادَةَ .
- ٣٦- زَاقِرُ بن سُلَيْمَانَ .
- ٣٧- زيد بن أبي الرِّقَاءِ .
- ٣٨- زيد بن الحُبَابِ .
- ٣٩- زيد بن يحيى بن عبيد الدَّمَشْقِيُّ .
- ٤٠- سعيد بن الحَكَمِ بن أبي مريم .
- ٤١- سعيد بن داود الرِّيَّبِيُّ .

- ٤٢- سعيد بن عمرو بن الرُّبَيْر بن عمرو بن عمرو بن الرُّبَيْر الرُّبَيْرِيُّ .
٤٣- سعيد بن كثير بن عُفَيْر .
٤٤- سعيد بن منصور .
٤٥- سُفْيَان الثَّوْرِيُّ ومات قبله .
٤٦- سُفْيَان بن عُيَيْتَةَ .
٤٧- سَلْمَةَ بن العِيَّار .
٤٨- سُؤَيْد بن سعيد .
٤٩- شُعْبَةَ بن الحَجَّاج ومات قبله .
٥٠- شُعَيْب بن حَرْب .
٥١- عبد الأعلى بن حَمَّاد التَّرْسِيُّ .
٥٢- عبد الرَّحْمَن بن القاسم المِصْرِيُّ .
٥٣- عبد الرَّحْمَن بن عمرو الأَوْزَاعِيُّ وهو أكبر منه .
٥٤- عبد الرَّحْمَن بن غَزْوَان المعروف بقراد أبي نوح .
٥٥- عبد الرَّحْمَن بن مهدي .
٥٦- عبد العزيز بن عبد الله الأَوْيسِيُّ .
٥٧- عبد الله بن إدريس .
٥٨- عبد الله بن الجَرَّاح القُهْطَنَانِيُّ .
٥٩- عبد الله بن المبارك .
٦٠- عبد الله بن رجاء المَكِّيُّ .
٦١- عبد الله بن عبد الوهَّاب الحَجَبِيُّ .
٦٢- عبد الله بن محمد النُّفَيْلِيُّ .
٦٣- عبد الله بن مَسَلَمَةَ .

- ٦٤- عبد الله بن نافع الدُّبَيْرِيُّ .
٦٥- عبد الله بن نافع الصَّائِغ .
٦٦- عبد الله بن وهَّب .
٦٧- عبد الله بن يوسف التَّنِيْسِيُّ .
٦٨- عبد الملك بن عبد العزيز بن الماجشون .
٦٩- عبد الملك بن عبد العزيز بن جُرَيْج وهو أكبر منه .
٧٠- عثمان بن عُمر بن فاس .
٧١- عُقْبَةُ بن خالد السَّكُونِيُّ .
٧٢- عُقْبَةُ بن عبد الله المَرْزِيُّ .
٧٣- على بن الجَعْد .
٧٤- القاسم بن يزيد الجَرْمِيُّ .
٧٥- قُتَيْبَةُ بن سعيد البلْخِيُّ .
٧٦- كامل بن طلحة الجَحْدَرِيُّ .
٧٧- لَيْث بن خالد البلْخِيُّ .
٧٨- لَيْث بن سَعْد وهو من أقرانه .
٧٩- محمد بن إدريس الشَّافِعِيُّ .
٨٠- محمد بن خالد بن عَنَمَةَ .
٨١- محمد بن سُلَيْمان بن أبى داود الحَرَّانِيُّ .
٨٢- محمد بن مُسلم بن شَهَاب الرُّهْرِيُّ وهو من شيوخه .
٨٣- مُصْعَب بن عبد الله الرُّبَيْرِيُّ .
٨٤- مُطَرِّف بن عبد الله الِيسَارِيُّ .
٨٥- معاوية بن هشام القَصَّار .

- ٨٦- مُعَلَى بن منصور الرَّازِيُّ .
٨٧- مَعْن بن عيسى القَرَّازِ .
٨٨- مَكِّي بن إبراهيم البُلْخِيُّ .
٨٠- منصور بن أبي مُرَّاحم .
٩٠- موسى بن أَعِين الجَرَّزِيُّ .
٩١- الثُّعْمَان بن السَّلَام الأَصْبَهَانِيُّ .
٩٢- هشام بن عبيد الله الرَّازِيُّ .
٩٣- هشام بن عَمَّار الدَّمَشْقِيُّ .
٩٤- ورقاء بن عُمَر البَشْكُرِيُّ ومات قبله .
٩٥- وكيع بن الجَرَّاح .
٩٦- الوليد بن مُسَلِّم .
٩٧- وَهَيْب بن خالد وهو من أقرانه .
٩٨- يحيى بن إبراهيم بن أبي قَتَيْلَةَ .
٩٩- يحيى بن أبي عُمَر العَدْرَنِيُّ .
١٠٠- يحيى بن أيوب المِصْرِيُّ .
١٠١- يحيى بن زكريا بن أبي زائدة .
١٠٢- يحيى بن سعيد الأنصاريُّ وهو من شيوخه .
١٠٣- يحيى بن سعيد القَطَّان .
١٠٤- يحيى بن عبد الله بن بُكَيْر .
١٠٥- يحيى بن قَرَعَةَ .
١٠٦- يحيى بن يحيى الأندلسيُّ .
١٠٧- يحيى بن يحيى الدَّيسَابُورِيُّ .

١٠٨- يزيد بن عبد الله بن الهاد وهو من شيوخه .

١٠٩- يونس بن عُبيد الله العميري .

ونحن إذا دققنا في أسماء شيوخه وتلاميذه رحمة الله سنجد تكراراً لبعض الأسماء ولكن هذا أمرٌ عاديٌّ، فبعض من روى عنهم مالك بن أنس رحمه الله رووا عنه أيضاً، ولذلك أوردناهم في ثبت تلاميذه والله تعالى أعلم.

مناقب مالك وثناء العلماء عليه :

إننا إذا تحدثنا عن مناقب الإمام مالك رحمه الله فإن القلم يقصر عن ذلك، ولنسوف نحتاج إلى أن نسوّد مئات الصفحات لكي نعبر عن جزءٍ بسيطٍ من مناقب هذا الإمام العظيم.

لقد كانت للإمام رحمه الله مناقبٌ عظيمةٌ قلما تجتمع في غيره من الأكابر، وعندما نذكرها سنجد أنفسنا أمام رجلٍ نسيحٍ وحدةٍ في شئون كثيرة، وينفرد الإمام مالك رحمه الله من بين هؤلاء جميعاً بميزةٍ هامةٍ تدل على عظيم قدره، وهي أنه ندر من ذمه أو عابه أو قدح في علمه من المتقدمين أو المتأخرين، وإننا ما إن نستعرض ترجمته في أى كتابٍ من كتب الرجال أو التاريخ حتى نجده يُمدح فيه، وذلك يدل على أنهم قد أجمعوا على إمامته وجلالة قدره وعظيم أثره في الأمة الإسلامية على اختلاف فرقها ومذاهبها.

وإذا نظرنا إلى حياة دينك الجهد الكبير علامة عصره، سنجدها مليئةً بالأحداث فهي حياةٌ مديدةٌ امتدت على مدار تسعين عاماً حافلةً بالعطاء والعلم والتعليم والعمل، ففي مجال العلم نجده أبرز علماء عصره علماً، وفي التعليم يكفى أن ننظر إلى تلاميذه فنجد أنهم يبلغون المئات من مختلف الأقطار الإسلامية، فكان يحرص على تعليمهم وبيت العلم فيهم والنظر فيما يصلح لهم، ويصلح أحوالهم فتخرج على يديه الكثير من الفقهاء والمحدثين والعلماء، وفي مجال العمل بالعلم فالإمام مالك من لا يبارى في ذلك ولم يستطيع كبار

علماء عصره أن يبلغوا مرتبته على جلاله أقدارهم فهو بالنسبة لهم الشمس بين النجوم والقذوة للمقتدين، ونعرض الآن لسنوف من مناقبه عسانا نستطيع أن نبين قدره.

١- ورعة وتقواه :

إن إمامنا الحافظ الفقيه المحدث مالك هو إمام أهل الورع وشيخهم، والقذوة لهم وهو في ذلك دليل السالكين إلى الله تعالى، ينير لهم الطريق ويرشدهم إلى الخبر أيما إرشاد. وقد روى عن مالك رحمه الله في صفة تقواه وورعه الشيء الكثير، وأثنى عليه فيها الكثير من أهل العلم وخصوصاً المشاهير منهم كسفيان الثوري، وسفيان بن عيينه، وأبي حنيفة والشافعي وأحمد بن حنبل وغيرهم الكثير.

كان مالك رحمه الله كثير الصلاة قواماً قالت فاطمة بنت مالك: "كان مالك يصلي كل ليلة حزبه فإذا كانت ليلة الجمعة أحيهاها كلها.

قال المغيرة: خرجت ليلة بعد أن هجع الناس هجعة فمررت بمالك بن أنس فإذا أنا به قائم يصلي فلما فرغ من الحمد لله ابتدأ بالهاكم التكاثر حتى بلغ ثم لُئْسُلْنَّ يوماً عن النعيم فبكى بكاءً طويلاً، وجعل يردددها ويبكى، وشغلني ما سمعت ورأيت منه عن حاجتي التي خرجت إليها فلم أزل قائماً وهو يردددها ويبكى حتى طلع الفجر. فلما تبين له ركع فصرت إلى منزلي فتوضأت ثم أتيت المسجد فإذا به في مجلسه والناس حوله فلما أصبح نظرت فإذا أنا بوجهه قد علاه نورٌ حسنٌ" (١).

"قال ابن وهب قيل لأخت مالك بن أنس ما كان شغل مالك بن أنس في بيته؟ قال: المصحف والتلاوة" (٢).

"قال أبو مصعب: كان مالك يطيل الركوع والسجود في ورده وإذا وقف في الصلاة كأنه خشبة يابسة لا يتحرك منه شيء."

(١) القاضى عياض، مرجع سابق، ج(١)، ص٩٢.

(٢) أبو حاتم الرازى، مرجع سابق، ج(١)، ص١٨.

فلما ضرب قيل له: لو خففت في هذا قليلاً.

فقال ما ينبغي لأحد أن يعمل لله عملاً إلا حسنه، والله تعالى يقول:

﴿... لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا...﴾ (١)

وذكر ابن القاسم أن خادم مالك قال له: إن مالك اليوم بضع وأربعين سنة. فلما يصلى الصبح إلا بضوء العتمة" (٢).

"وكان لإخلاصه لا يقول هذا حرامٌ أو هذا حلالٌ، إلا إذا كان ثمة نص صريح، أما ما يكون استنباطاً بوجه من وجوه الرأي، فإنه لا يقول حلال وحرام.

بل يقول: أكرهه واستحسن. وكثيراً ما كان يعقب على ذلك بقوله مقتبساً من القرآن الكريم:

﴿... إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُستَيِقِّينَ﴾ (٣)

ومن ورعه رحمه الله قول الإمام ابن المبارك "رأيت مالكا فرأيتَه من الخاشعين وإنما رفعه الله بسريرة بينه وبينه، وذلك أني كثيرٌ ما كنت أسمعه يقول: من أحب أن يفتح له فرجه في قلبه وينجو من غمرات الموت وأهوال يوم القيامة فليكن عمله في السر أكثر منه في العلانية" (٤).

"قال خالد بن نزار الایلی: ما رأيت أحداً أنزع بكتاب الله عز وجل من مالك بن أنس. وقد رأى خالد سفيان الثوري وسفيان بن عيينه والليث بن سعد وغيرهم" (٥).

(١) سورة الملك: من الآية ٢.

(٢) النووي (أبو زكريا محيي الدين بن شرف النووي، ت ٦٧٦هـ)، تهذيب الأسماء واللغات، ج (٢)، (بيروت: دار الكتب العلمية، دت)، ص ٧٨.

(٣) سورة الجاثية: من الآية ٣٢. محمد أبو زهرة، تاريخ المذاهب الإسلامية، مرجع سابق، ص ٣٩٩.

(٤) القاضي عياض، مرجع سابق، ج (١)، ص ٩٢.

(٥) أبو حاتم الرازي، مرجع سابق، ج (١)، ص ١٨.

"قال ابن وهب : وكان أكثرُ عبادة مالك في السر بالليل والنهار حيث لا يراه أحدٌ قال أبو بكر الأوسى : كان مالك قد أدام النظر في المصحف قبل موته بسنين وكان كثير القراءة طويل البكاء. وقال ابن مهدي: سمعت مالكا يقول: لو علمت أن قلبي يصلح على كناسةٍ لذهبت حتى أجلس عليها"^(١).

"وقد بلغ الأمر، بالإمام مالك في بعض سلوكه أن جعل من الأناقة شيئاً لنفى مظاهر التفاخر بالعبادة. فكثيرٌ من الناس يحبون أن يعرفوا بكثرة الصلاة من علامة بجباههم تسمى الزبيبة يساعد على ظهورها السجود على شيء خشن . وليس كل صاحب زبيبة مفاخرًا بها جاعلاً منها سبباً للإعلان عن تقوى ذاته وصلاح أمره .

بل هي على الأغلب تنبت في جباه الصالحين الركع السجود، وأما علاقة مالك بهذا الأمر فهو أنه كان يحمل في كفه منديلاً مطويًا على أربع طاقات. فإذا حان وقت الصلاة نشره وسجد عليه. فقليل له في ذلك، فقال: أجعله لئلا يؤثر الحصى في جبته فيظن الناس أني أقوم الليل"^(٢).

"وقال ابن مهدي : ما رأيت أحداً أتم عقلاً ولا أشد تقوى من مالك"^(٣).
ويذكر ابن تغرى بردى " وكان الإمام مالك رحمه الله عظيم الجلالة كبير الوقار غزير العلم متشددًا في دينه"^(٤).

ويذكر الإمام ابن حجر العسقلاني "ومالك كان ثقةً مأموناً ثبتاً ورعاً فقيهاً عالماً حجةً"^(٥).

(١) القاضى عياض، مرجع سابق، ج(١)، ص ١٨.

(٢) - مصطفى الشكعة، مرجع سابق، ص ٤٢.

- القاضى عياض، مرجع سابق، ج(١)، ص ٩٣.

(٣) الساعدي (صفي الدين أحمد بن عبد الله بن أبي الخيري عبد العليم الخنرجي الأنصاري، ت ١٣٠١ هـ، خلاصة تهذيب الكمال في أسماء الرجال، القاهرة: المطبعة الكبرى الميرية، دت)، ص ٣٦٦.

(٤) ابن تغرى بردى (جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغرى بردى الأتابكي)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج(٢)، (القاهرة: دار الكتب المصرية، ١٩٣٠م)، ص ٩٦.

(٥) ابن حجر العسقلاني، تهذيب التهذيب، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، ج ١٠، (بيروت: دار الكتب العلمية ١٩٩٤م)، ص ٧.

ومن ورعه أيضاً ما روى عنه من قوله " ما كنت لاعباً فلا تلعبن بدينك، وقد سئل مالك بن أنس عن الداء العضال فقال: الخبث في الدين" (١).

ويذكر الإمام ابن النديم " كان مالك من عباد الله الصالحين" (٢).
وقال الحميدى " حدث القعنبى .

قال: دخلت على مالك وهو يبكى فى مرض وفاته فقلت: ما يبكيك؟

فقال لى : ومالى لا أبكى ومن أحق بالبكاء منى والله لوددت أنى ضربت بكل مسألة أفنت فيها برأى بسوطٍ سوط، وقد كانت لى السعة فيما قد سُبِّتُ إليه وليتنى لم أفنت بالرأى" (٣).

ومما يدل على شدة ورعه وتقواه قول الحارث بن مسكين "رحم الله مالكا، ما كان أصونه للعلم وأصبره على الفقر ولزوم المدينة. أمر له بجوائز ثلاثة آلاف دينار فما استبدل منزلاً غير المنزل الذى كان فيه ولا استفاد منه غلةً ولا صنعةً ولا تجارةً.

قال ابن القاسم : كان لمالك رحمه الله تعالى أربع مائة دينار يتجرله بها، فمنها كان قوام عيشة ومصلحته" (٤).

ومما يشهد له بالورع ما روى عنه " كان مالك عظيم المحبة لرسول الله ﷺ مبالغاً فى تعظيم حديثه حتى كان لا يركب فى المدينة مع ضعفه وكبر سنه ويقول لا أركب فى بلد فيها جسد رسول الله ﷺ مدفون" (٥).

ويورد الإمام الذهبى "قال مخلص بن خدّاش سألت مالكا عن الشطرنج فقال أحق هو فقلت لا قال فماذا بعد الحق إلا الضلال" (١).

(١) الأصفهاني، مرجع سابق، ج(٦)، ص ٣١٩ : ٣٢٠.
(٢) ابن النديم، الفهرست، تحقيق: الشيخ إبراهيم رمضان، (بيروت: دار المعرف، ١٩٩٤م)، ص ٢٤٧.
(٣) الثعالبي، مرجع سابق، ص ٤٥٣.
(٤) القاضى عياض، مرجع سابق، ج(١)، ص ٩٥.
(٥) ابن العماد الحنبلى (الإمام أبو الفلاح عبد الحى بن العماد الحنبلى، ت ١٠٨٩هـ)، شذارات الذهب فى أخبار من ذهب، ج(١)، (بيروت: دار المسيرة، د.ت)، ص ٢٨٩.

٢- علمه وثناء العلماء عليه :

إننا إذا نظرنا إلى سيرة إمامنا مالك بن أنس رحمه الله فسنجد أنه لم يُمدح أحدٌ من العلماء بقدر ما مُدح مالك رحمه الله وسنجد أيضاً أن ذلك يكاد يكون إجماعاً من العلماء المؤرخين على جلالته قدره وسعة علمه وعظيم فضله، والروايات في ذلك كثيرة، وقد جاءت على لسان كبار علماء هذا العصر من المحدثين والفقهاء وكذلك أئمة المذاهب الثلاثة رضى الله عنهم أجمعين.

فمنهم من أثنى على تقواه وورعه ومنهم من أثنى على جوده وسخائه ورحمته بالمساكين والفقراء ومنهم من أثنى على علمه ورجاحة عقله وأدبه وعظيم شأنه في الحديث والفقه.

"قال الشافعي قال لي محمد بن الحسن أي أعلم صاحبنا أو صاحبكم يعني أبا حنيفة ومالكاً رحمهما الله تعالى قلت على الإنصاف قال نعم قلت أنشدك الله من أعلم بالقرآن قال صاحبكم قلت فمن أعلم بالسنة قال صاحبكم قلت فمن أعلم بأقوال الصحابة قال صاحبكم قلت فما بقي إلا القياس وهو لا يكون إلى على هذه الأشياء" (٢).

وفى بداية ترجمته لمالك رحمته الله قال أبو نعيم الأصفهاني "فمنهم - أي من أولياء الله إمام الحرمين، المشهور في البلدين الحجاز والعراقين، المستفيض مذهبه في المغربين والمشرقين؛ مالك بن أنس رحمته الله. كان أحد النبلاء وأكمل العقلاء. ورث حديث الرسول ونشر في أمته علم الأحكام والأصول تحقق بالتقوى فابْتُلِيَ بالبلوى" (٣).

وقال الإمام ابن عيينة "كان مالك إماماً في الحديث" (٤).

وقال الشافعي: "العلم يعني الحديث يدور على ثلاثة: مالك بن أنس، وسفيان بن عيينة، والليث بن سعد" (١).

(١) الذهبي (الحافظ محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي أبو عبد الله، ت ٧٤٨هـ)، سير أعلام النبلاء، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، محمد نعيم العرقسوس، ج(٨)، ط(٩)، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤١٣هـ)، ص ١٠٨.
 (٢) ابن العماد الحنبلي، مرجع سابق، ج(١)، ص ٢٨٩.
 (٣) الأصفهاني، مرجع سابق، ج(٦)، ص ٣١٦.
 (٤) البخاري (الحافظ أبو عبد الله إسماعيل بن إبراهيم الجعفي البخاري، ت ٢٥٦هـ)، كتاب التاريخ الكبير، ج(٤) القسم الأول، (بيروت: دار الكتب العلمية، د.ت)، ص ٣١٠.

وقال ابن مهدي: "ما بقى على وجه الأرض آمن على حديث رسول الله ﷺ من مالك" (٢).

وقال خلف "دخلت على مالك بن أنس فقال لي: أنظر ما تحت مُصَلَّاتي أو حَصِيرِي فنظرت فإذا بكتابٍ فقال: أقرأه فإذا فيه رؤيا رآها له بعض إخوانه.

فقال: رأيت النبي ﷺ في المنام في مسجده وقد اجتمع الناس عليه فقال لهم: إنى قد خبأت لكم تحت منبري طيباً أو علماً وأمرت مالكا أن يفرقه على الناس. فانصرف الناس وهم يقولون إذا يُنفذ مالك ما أمر به رسول الله ﷺ. ثم بكى فقامت عنه" (٣).

وقال محمد بن سعيد "وكان مالك ثقةً، مأموناً، ثبناً ورعاً، فقيهاً، عالماً، حجةً" (٤).

قال عبد الرحمن بن مهدي "سفيان الثوري إمامٌ في الحديث وليس بإمامٍ في السنة والأوزاعي إمامٌ في السنة وليس بإمامٍ في الحديث؛ ومالك بن أنس إمامٌ فيهما جميعاً" (٥).

ويذكر الإمام الذهبي: "ولم يكن بالمدينة عالماً من بعد التابعين يشبه مالكا في العلم والفقه والجلالة والحفظ" (٦).

وقال الشافعي: إذا ذُكر العلماء فمالك النجم" (٧).

وقال أبو موسى الأشعري قال رسول الله ﷺ "يخرج ناسٌ من المشرق والمغرب في طلب العلم فلا يجدون عالماً أعلم من عالم المدينة أو عالم أهل المدينة" (*)(٨).

(١) ابن عبد البر (الإمام الحافظ يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر القرطبي، ت ٤٦٣هـ)، التمهيد لما في الموطأ من المعاني والمسانيد، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، ج(١)، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٩م)، ص ٥١.

(٢) ابن فرحون، مرجع سابق، ج(١)، ص ٦٦.

(٣) ابن الجوزي (الإمام جمال الدين أبي الفرج بن الجوزي، ت ٥٩٧هـ)، صفة الصفة، تحقيق: محمود فاخوري محمد رواسى قلعه جي، ج(٢)، (بيروت: دار المعرفة، د.ت)، ص ١٧٨.

(٤) المزي، مرجع سابق، ج(١٧)، ص ٣٨٩.

(٥) بطاش كبرى زاده (أحمد بن مصطفى)، مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم، م(٢)، (بيروت: دار الكتب العلمية، د.ت)، ص ١٩٦.

(٦) الذهبي، مرجع سابق، ج(٨)، ص ٥٨.

(٧) الذهبي، العبر في خبر من عبر، تحقيق: أبو هاجر محمد السعيد بن بسبوني زغلول، ج(١)، (بيروت: دار الكتب العلمية، د.ت)، ص ٢١٠.

(*) الحاكم النيسابوري (الحافظ محمد بن عبد الله أبو عبد الله الحاكم النيسابوري، ت ٤٠٥هـ)، المستدرک على الصحيحين، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، ج(١)، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٠م)، ص ١٦٨.

وقد قال ابن عيينه أنه : مالك بن انس^(٢) ؛ وقال أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي "أمناء الله على علم رسول الله ﷺ ثلاثة: شعبة بن الحجاج ويحيى بن سعيد ومالك بن أنس"^(٣).

"وقال ابن هرmez لجاريته يوماً: مَنْ بالباب؟ فلم تر إلا مالكا، فذكرت ذلك له، فقال أذيعه، فإنه عالم الناس، وقال بعضهم : سمعت بقية بن الوليد فى جماعة ممن يطلب الحديث ومشيخة من أهل المدينة يقولون ما بقى على ظهرها يعنى الأرض أعلم بسنة ماضية ولا باقية منك يا مالك. وقال محمد بن عبد الحكم: إذا انفرد مالك بقول لم يقله مَنْ قبله فقله حجةٌ توجب الاختلاف؛ لأنه إمام. ف قيل له فالشافعى؟ فقال لا"^(٤).

"وقال القاضى ﷺ : قال زياد بن يونس ما رأيت قط عالماً ولا عابداً ولا شاطراً ولا والياً أهيب من مالك رحمه الله تعالى"^(٥).

قال ابن وضاح: وسمعت أبا جعفر الأيلى يقول: سمعت ابن وهب مالا أحصى يقول: لولا أن الله أنقذنى بمالك والليث لزللت"^(٦).

وعن الإمام أبى الحسن بن عاصم - رحمه الله - أنه كان يقول: رحم الله مالكا، إن الفؤاد ليسكن إلى حديثه؛ لأنه كان شديد الأتباع لما ورد إليه من السنة"^(٧).

"قال أبو عبد الله مولى الليثيين - وكان مختاراً - قال: رأيت رسول الله ﷺ فى المسجد قاعداً والناس حوله، ومالك قائمٌ بين يديه، وبين يدي رسول الله ﷺ مسك، وهو يأخذ

(١) ابن نقطة (الحافظ أبو بكر محمد بن عبد الغنى البغدادي المعروف بابن النقطة الحنبلي، ت ٦٢٩هـ)، التقييد لمعرفة رواة السنن والمسائيد، تحقيق: كمال يوسف الحوت، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٨م)، ص ٤٣٧.

(٢) ابن كثير الدمشقي، ت ٧٧٤هـ، البداية والنهاية، ج(٩)، ط(٥)، (بيروت: مكتبة المعارف، ١٩٨٣م)، ص ١٧٥.

(٣) النسائي (الحافظ أحمد بن شعيب أبو عبد الرحمن النسائي، ت ٣٠٣هـ)، الضعفاء والمتروكين، تحقيق: بوران الصنباوى، كمال يوسف الحوت، (بيروت: مؤسسة الكتب الثقافية، ١٩٨٥م)، ص ١٢٣.

(٤) بطاش كبرى زاده، مرجع سابق، م(٢)، ص ٦٦.

(٥) القاضى عياض، مرجع سابق، ج(١)، ص ٨٤.

(٦) ابن عبد البر، مرجع سابق، ص ٥١.

(٧) على محمد معرض، عادل أحمد عبد الموجود، مرجع سابق، ج(٢)، ص ١٠٣.

منه قبضةً قبضةً فيدفعها إلى مالك ومالك ينشرها على الناس. قال مطرف: فأولت ذلك العلم واتباع السنة" (١).

"وعن محمد بن رمح قال رأيت النبي ﷺ من أربعين سنة في المنام فقلت يا رسول الله مالك والليث يختلفان في مسألة فقال النبي ﷺ مالك مالك مالك ورت جدى يعنى إبراهيم عليه السلام" (٢).

"وكان عبد الرحمن بن مهدي يقول: أئمة الناس في زماننا أربعة، سفيان الثوري بالكوفة، ومالك بالجزان، والأوزاعي بالشام، وحماد بن زيد بالبصرة" (٣).
مالك المحدث :

لا يخفى على مسلم ما للسنة النبوية من قدر في قلوب المسلمين، فالسنة هي المصدر الثاني من مصادر التشريع الإسلامي؛ فما قاله النبي ﷺ من قول أو فعله من فعل فهو وحى من الله إلا ما كان من أمور العادة.
قال الله تعالى :

﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۗ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ (٤)

ونحن هنا بصدد الحديث عن الإمام الكبير الحافظ المحدث مالك بن أنس وهو من أكابر علماء المسلمين ممن قال الله ﷻ فيهم :

﴿... إِنَّمَا تَخَشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ... ﴾ (٥)

وقال تعالى أيضاً فيهم :

﴿... شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ... ﴾ (٦)

(١) الأصفهاني، مرجع سابق، ج(٦)، ص ٣١٧.

(٢) النووي، مرجع سابق، ج(٢)، ص ٧٨.

(٣) أبو حاتم الرازي، مرجع سابق، ج(١)، ص ١١.

(٤) سورة النجم : الآية من ٣ : ٤ .

(٥) سورة فاطر : من الآية ٢٨ .

(٦) سورة فاطر : من الآية ٢٨ .

"وقال الإمام أبو حنيفة: إن لم يكن العلماء أولياء الله في الأرض فليس لله فيها ولي، وقال الأحنف بن قيس: كل عزلم يؤيد بعلمٍ فالى ذل يصير"، وقيل العلم يوطئ الفقراء بسط الملوك" (١).

فإمامنا العظيم مالك بن أنس قد قام بجهدٍ كبيرٍ فى رواية هذه السنة المطهرة هو وكوكبة من العلماء الإجلاء فنشروا السنة النبوية بين الناس وجعلهم الله سبباً فى حفظ حديث رسول الله ﷺ فرووا الحديث بالإسناد المتصل، فالإسناد هو الخاصية التى اختص الله سبحانه وتعالى بها هذه الأمة دون غيرها من الأمم.

وقد رأينا أن نبدأ بمقدمة عن الحديث، وفضل روايته، وشرف أصحابه:

أ - شرف علم الحديث :

قال رسول الله ﷺ "أوصيكم بتقوى الله، والسمع والطاعة، وإن كان عبداً حبشياً فإنه من يعش منكم يرى بعدى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنتى وبسنة الخلفاء الراشدين المهديين وعضوا عليها بالنواجذ. وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة وإن كل بدعة ضلالة" (*).

وهذا أمرٌ بالتزام السنة وإتباعها، فلهذا كانت رواية الحديث الشريف من أهم العلوم الشرعية التى حضَّ عليها رسول الله ﷺ، فقام علماء الإسلام بجمعون الحديث وبيدلون الجهد المضى لتمييز صحيحه من ضعيفه.

ومن هؤلاء العلماء الإمام الكبير مالك بن أنس الذى حُدد ذكره برواية حديث رسول الله ﷺ فلا شك أن رواية الحديث شرفٌ لأصحابه وحفظه يقربهم من الله ﷻ .

(١) الراغب الأصبهاني، محاضرة الأدباء، ج(١)، (القاهرة: مكتبة عيسى البابي الحلبي، د.ت)، ص ١٣.
 (*) أحمد بن حنبل (الإمام أبو عبد الله أحمد بن حنبل الشيباني، ت ٢٤١هـ)، مسند أحمد، ج(٤)، (مصر: مؤسسة قرطبة، د.ت)، ص ١٢٦.

فكان مالك بن أنس محدثاً، حافظاً، ثقةً، ثبتاً، مدافعاً عن السنة النبوية، محامياً عنها، ذاباً عن حماها، فهو كالمجاهد في سبيل الله، يعد للجهاد ما استطاع من الآلات والعدة والقوة كما قال سبحانه وتعالى :

﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ ... ﴾^(١)

وقد ثبت في الصحيح أن جبريل عليه السلام كان مع حسان بن ثابت رضي الله عنها يؤيده ما دافع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في أشعاره، فكذا من ذب عن دينه وسنته من بعده إيماناً به وحباً ونصحاً له، ورجاءً أن يكون من الخلف الصالح الذين روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فيهم "يحمل هذا العلم من كل خلفٍ عُذُوْله، ينفون عنه تحريف الغالين، وتأويل الجاهلين وابتحال المبطلين"^(*). والجهاد باللسان أحد أنواع الجهاد وسبله، وفي الحديث: "أفضل الجهاد كلمة حق"^(**).

ب- فضل راوى الحديث :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "نضر الله امرأً سمع كلامي فلم يزد فيه فرب حامل علم إلى من هو أوعى له منه"^(***)، فكفى راوى الحديث فضلاً دخوله في دعوته صلى الله عليه وسلم الأنفة "ف قيل في قوله تعالى :

﴿ يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمْئِهِمْ ... ﴾^(٢)

قيل فيها ليس لأهل الحديث منقبةٌ أشرف من ذلك؛ لأنه لا إمام لهم غيره النبي صلى الله عليه وسلم^(٣).

(١) سورة الأنفال : من الآية ٦٠ .

(*) الهيثمي (الحافظ نور الدين علبين أبي بكر الهيثمي، ت٨٠٧هـ)، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، ج(١)، (بيروت دار الكتاب العربي، ١٤٠٧هـ)، ص ١٤٠.

(**) ابن عبد البر، التمهيد لابن عبد البر، تحقيق: مصطفى بن أحمد الحلوى، محمد عبد الكبير البكري، ج(٢١) (المغرب: وزارة عموم الأوقاف والشئون الإسلامية، ١٣٧٨هـ)، ص ١٤٠.

(***) الأصفهاني، المسند المستخرج على صحيح الإمام مسلم، تحقيق: محمد حسن إسماعيل الشافعي، ج(١) (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٦م)، ص ٤١.

(٢) سورة الأنفال : من الآية ٦٠ .

(٣) النووي، تدريب الراوي، (القاهرة: المطبعة الخيرية، ١٣٠٧هـ)، ص ١٧٠.

ويأتي الإمام مالك بن أنس رحمه الله على رأس هؤلاء بلا شك.

"وقال الإمام الشافعي: لولا أهل المحابر لخطب الزنادقة على المنابر" (١).

أي لولا أهل الحديث، "وقال أيضاً: أهل الحديث في كل زمان كالصحابية في زمانهم

وقال أيضاً: إذا رأيت صاحب حديث فكأنى رأيت أحداً من أصحاب رسول

الله ﷺ" (٢).

"وكان الأعمش (*) يقول: عليكم بملازمة السنة، وعلموها للأطفال، فإنهم يحفظون

على الناس دينهم إذا جاء وقتهم، وكان وكيع (***) رحمه الله تعالى يقول: عليكم بإتباع

الأئمة المجتهدين والمحدثين، فإنهم يكتبون ما لهم وما عليهم بخلاف أهل الأهواء والرأى

فإنهم لا يكتبون قط ما عليهم" (٣).

ج - المقصود بعلم الحديث :

قال عز الدين بن جماعة: "علم الحديث هو: علم القوانين يعرف بها أحوال السند

والمتن، وموضوعه: السند والمتن، وغايته معرفة الصحيح من غيره" (٤).

وعرفه ابن الأكفاني: "علم الحديث الخاص بالرواية: علم يشتمل على نقل أقوال

النبي ﷺ، وأفعاله، وروايتها، وضبطها، وتحرير ألفاظها؛ وعلم الحديث الخاص بالدراية

علمٌ يعرف منه حقيقة الرواية، وشروطها، وأنواعها، وأحكامها، وحال الرواة، وشروطهم

وأصناف المرويّات وما يتعلق بها" (٥).

وإذا كنا بصدد الحديث عن المحدث الكبير مالك بن أنس فيكون من تنمة الأمر أي

نذكر تعريف "المحدث"، و"الحافظ". قال ابن سيد الناس: "المحدث في عصرنا من اشتغل

(١) جمال الدين القاسمي، قواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث، تحقيق: محمد بهجت البيطار، (القاهرة: مطبعة عيسى البابي الحلبي، ١٣٥٣هـ)، ص ٤٩.

(٢) المرجع السابق، ص ٤٩.

(*) هو: سليمان بن مهران، تابعي مشهور، مكثر من الرواية.

(**) هو: وكيع بن الجراح: من كبار أتباع التابعين، وهو شيخ الإمام الشافعي.

(٣) جمال الدين القاسمي، مرجع سابق، ص ٤٩.

(٤) المرجع السابق، ص ٤٩.

(٥) المرجع السابق، ص ٤٩.

بالحديث روايةً ودرايةً، وجمع بين روايته، واطّلع على كثير من الرواة والروايات في عصره وتميز في ذلك حتى عرف فيه حفظه، واشتهر في ضبطه، فإن توسع في ذلك حتى عرف شيوخه وشيوخ شيوخه طبقةً بعد طبقةً بحيث يكون ما يعرفه من كل طبقةٍ أكثر مما يجله، فهذا هو الحافظ....^(١)

وعند أكثر السلف أن الحافظ مرادف للمحدّث.

منهج مالك بن أنس في الحديث :

• تحريه الدقة في رواية الحديث :

كان مالك بن أنس رحمه الله شديد الدقة في رواية الحديث .

"قال الشافعي: كان مالك إذا شك في الحديث طرحه كله.

وقال أحمد بن شعيب النسائي: أمنا الله ﷻ على رسوله ﷺ شعبة بن الحجاج ومالك بن أنس، ويحيى بن سعيد القطان، قال: والثوري إمام، إلا أنه كان يروى عن الضعفاء، قال: وكذلك ابن المبارك من أجل أهل زمانه إلا أنه يروى عن الضعفاء، قال وما أحد عندي بعد التابعين أنبل من مالك بن أنس ولا أجل ولا آمن على الحديث منه، ثم شعبة في الحديث، ثم يحيى بن سعيد القطان، وليس بعد التابعين، آمن من هؤلاء الثلاثة ولا أقل روايةً عن الضعفاء"^(٢).

ويذكر الإمام الذهبي " قال بشر بن عمر الزهراني سألت مالكا عن رجل فقال هل رأيتَه في كتبي قلت لا قال لو كان ثقةً لرأيتَه في كتبي .

فهذا القول يعطيك بأنه لا يروى إلا عن من هو عنده ثقة ولا يلزم من ذلك أنه يروى عن كل الثقات ثم لا يلزم مما قال أن كل من روى عنه وهو ثقةٌ عند باقى الحفاظ فقد يخفى عليه من حال شيخه ما يظهر لغيره إلا أنه بكل حال كثير التحري في نقد الرجال رحمه الله"^(٣).

(١) المرجع السابق، ص ٤٩.

(٢) ابن عبد البر، التمهيد لما في الموطأ من المعاني والمسانيد، مرجع سابق، ج(١)، ص ٥٢.

(٣) الذهبي، سير أعلام النبلاء، مرجع سابق، ج(٨)، ص ص ٧٢: ٧٤.

ويذكر صاحب الحلية "قال الشافعي: إذا جاء الحديث عن مالك فاشدد يدك به وقال سفيان: كان مالك ينتقى الرجال ولا يحدث عن كل أحد، قال علي: ومالك أمان فيمن حدث عنه من الرجال، كان مالك يقول: لا يؤخذ العلم إلا عن من يعرف ما يقول"^(١). وقال ابن وهب "سمعت مالكا يقول لقد أدركت بالمدينة أقواما لو استسقى بهم القطر لسقوا وقد سمعوا من العلم والحديث شيئا كثيرا وما أخذت عن واحد منهم وذلك أنهم كانوا قد ألزموا أنفسهم خوف الله والزهد وهذا الشأن يعنى الحديث والفتيا يحتاج إلى رجل معه تقى وورع وصيانة وإتقان وعلم وفهم ويعلم ما يخرج من رأسه وما يصل إليه غدا في القيامه فأما زهد بلا إتقان ولا معرفة فلا ينتفع به وليس هو بحجة ولا يحمل عنهم العلم"^(٢).

ويورد الإمام النووي: "أخذ مالك على تسمائه شيخ منهم ثلثمائة من التابعين وستمائة من تابعيهم ممن اختاره وارتضى دينه وفقهه وقيامه بحق الرواية وشروطها وخلصت الثقة به وترك الرواية عن أهل دين وصلاح لا يعرفون الرواية"^(٣). ويورد الإمام السخاوي "وكان - أى مالك - أول من انتقى الرجال من الفقهاء بالمدينة وأعرض عن من ليس بثقة في الحديث. فلم يكن يروى إلا ما صح، ولا يحدث إلا عن ثقة"^(٤). "فلا يأخذ الحديث من نى هوى مبتدع، ولا من شيخ لا يعرف ما يحمل ويحدث به، ولا من سفيه، ولا من كذاب"^(٥).

ويورد الإمام ابن سعد "قال رجلٌ لمالك: قد سمعت مائة ألف حديث.

فقال مالك: مائة ألف حديث أنت حاطب ليل تجمع القشعة .

(١) الأصفهاني، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، مرجع سابق، ج(٦)، ص ٣٢٢.
 (٢) السيوطي، تنوير الحوالك شرح على مؤطا مالك، ج(١)، (بيروت: المكتبة الثقافية، ١٩٨٤م)، ص ٥.
 (٣) النووي، تهذيب الأسماء واللغات، مرجع سابق، ج(٢)، ص ٧٨.
 (٤) السخاوي (الحافظ المؤرخ شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي، ت ٩٠٢هـ)، التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة، تحقيق: أسعد طرايزوني الحسيني، ج(٣)، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٠م)، ص ٤٤٢.
 (٥) سهير القلماوي وآخرون، الموسوعة العربية الميسرة، م(٢)، (القاهرة: دار الجيل، الجمعية المصرية لنشر المعرفة والثقافة العالمية، ١٩٩٥م)، ص ١٦٣٠.

فقال: ما القشعة؟

قال: الحطب يجرعه الإنسان بالليل، فربما أخذ معه الأفعى فتنهشه" (١).

وقال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله "أنه سُئِلَ عن الرجل يريد الحديث، فيحدث

من يأخذ؟

فقال: بحديث مالك، فقيل له: فإن الرجل يريد الرأى، فبرأى من يأخذ؟ فقال: برأى

مالك" (٢).

ويروى الإمام ابن الجوزى "كان -أى مالك- ثقةً حجةً" (٣).

ويشهد له الإمام العجلي بالثبوت فى رواية الحديث فيذكر "ويعد الإمام مالك من

أدق المحدثين" (٤).

• صدقه فى رواية الحديث :

ورد إلينا الكثير مما يدل على أن مالك بن أنس رحمه الله كان عظيم التحرى

للصدق فى رواية الحديث، "يورد الإمام إسحاق بن إبراهيم: إذا اجتمع الثورى ومالك

والأوزاعى على أمر فهو سنةٌ وإن لم يكن فيه نصٌ" (٥).

وقال الحارث بن مسكين: "سمعت بعض المحدثين يقول: قد قرأ علينا وكيع فجعل

يقول حدثنى الثبث حدثنى الثبث فقلنا: من هو؟ قال مالك. قلت فمعمرفقدم مالكا إلا

أن معمراً أكبر وقال عبد الله بن أحمد قلت لأبى: من أثبت أصحاب الزهرى؟ قال مالك

أثبتت فى كل شىء" (٦).

(١) ابن سعد (الإمام محمد بن سعد بن منيع الهاشمى البصرى)، الطبقات الكبرى، تحقيق: محمد عبد القادر عطا ج (٥)، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٠م)، ص ٤٦٧.

(٢) على محمد معرض، عادل أحمد عبد الموجود، مرجع سابق، ج (٢)، ص ١٠٣.

(٣) ابن الجوزى، المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم، تحقيق: محمد عبد القادر، مصطفى عبد القادر عطا، ج (٩) (بيروت: دار الكتب العلمية، دت)، ص ٤٢.

(٤) العجلي (الإمام أحمد بن عبد الله بن صالح أبى الحسن العجلي، ت ٢٦١هـ)، تاريخ الثقات، تحقيق: عبد المعطى قلجى، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٤م)، ص ٤١٧.

(٥) الذهبى، تذكرة الحفاظ، تحقيق: عبد الرحمن بن يحيى الميعلى اليمانى، ج (١)، ط (٣)، (القاهرة: دار الفكر العربى، دت)، ص ٢٠٩.

(٦) ابن حجر العسقلانى، تهذيب التهذيب، مرجع سابق، ج (١)، ص ٧.

ومما يدل على تحريه الصدق في رواية الحديث "قال حبيب بن زريق: قلت لمالك ابن أنس لم تكتب عن صالح مولى التوأمة وحزام بن عثمان وعمر مولى غفرة؟ قال: أدركت سبعين تابعياً في هذا المسجد ما أخذت العلم إلا عن الثقات المأمونين، وعن مالك أنه بلغه أن لقمان الحكيم قيل له: ما بلغ بك ما نرى؟

قال: صدق الحديث، وأداء الأمانة، وتركى ما لا يعينى" (١).

ويورد الإمام أبو حاتم الرازي "مالك بن أنس ثقة، أمام الحجاز، وهو أثبت أصحاب الزهري، وإذا خالفوا مالكا من أهل الحجاز حكم لمالك، ومالك نقي الرجال نقي الحديث وهو أنقى حديثاً من الثوري والأوزاعي، وأقوى في الزهري من ابن عيينه، وأقل خطأً منه وأقوى من معمر وابن أبي ذئب" (٢).

"وسئل رحمه الله تعالى عن الأحاديث يقدم فيها ويؤخر والمعنى فيها واحد فقال أما ما كان من لفظ النبي ﷺ فلا ينبغي للمرء أن يقوله إلا كما جاء. وأما لفظ غيره فإذا كان المعنى واحداً فلا بأس. وقيل له: فحديث رسول الله ﷺ يزداد فيه الواو والألف والمعنى واحد؛ فقال: أرجو أن يكون خفيفاً" (٣).

وقال الحسن بن علي: "كنا عند وهيب بن خالد فحدثت بحديث عن مالك وابن جريح. فقلت لرجل أكتب ابن جريح ودع مالكا، لأنه كان حياً. فسمعها وهيب، فقال: تقول دع مالكا؟ ما نعلم بين شرقها وغربها أحد آمن عندنا من مالك على حديث" (٤).

• خوفه من رواية الحديث:

لقد كان الإمام مالك بن أنس محدثاً كبيراً ومع ذلك كان يخاف من رواية الحديث والإكثار منه، وهذا مشتهر عنه: "قال ابن وهب: سمعت من ابن شهاب أحاديث كثيرة ما

(١) الأصفهاني، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، مرجع سابق، ج(٦)، ص ص ٣٢٣: ٣٢٨.

(٢) أبو حاتم الرازي، مرجع سابق، ج(١)، ص ١٧.

(٣) ابن فرحون، مرجع سابق، ج(١)، ص ص ٦٩: ٧٠.

(٤) القاضي عياض، مرجع سابق، ج(١)، ص ٦٥.

حدثت بها قط ولا أحدث بها. وقال ابنه: لما دفنا مالكاً دخلنا منزله فأخرجنا كتبه فإذا فيها سبع فناديق من حديث ابن شهاب ظهورها وبطونها مائى، وعنده فناديق أو صناديق من حديث أهل المدينة فجعل الناس يقرءون ويدعون ويقولون: رحمك الله يا أبا عبد الله؛ لقد جالسناك الدهر الطويل، فما رأيناك ذاكرتنا بشيء مما قرأناه" (١).

"وقال أحمد بن صالح: نظرت في أصول مالك فوجدتها شبيهاً بأثنى عشر ألف حديث. قال بعضهم وهو حديث أهل المدينة في ذلك الوقت فلم يحدث مالك إلا بثلاثها وأخرج ابن أبي أويس سماع مالك من الزهري، فإذا نحو ثلاثمائة وخمسين حديثاً. وقال الشافعي: قيل لمالك: عند ابن عيينة أحاديث ليست عندك. فقال: إذا أحدث الناس بكل ما سمعت إنى إذاً أحمق. وفي رواية إنى أريد أن أضلهم إذاً" (٢).

ومما يدل على شدة خوفه من رواية الحديث قوله رحمه الله "لقد خرجت منى أحاديث لوددت أنى ضربت بكل حديثٍ منها سوطاً، ولم أحدث بها، وقال عندي أحاديث لو ضرب رأسى بالسوط ما أخرجتها أبداً" (٣).

ونرى: أنه قد يكون السبب في ذلك أيضاً الخوف من أن يختلط الحديث بالقرآن وهذا أمرٌ مروى عن النبي ﷺ، حيث إنه نهى عن كتابة الحديث ومن بعده أبو بكر ﷺ وأظن والله أعلم أن هذا اجتهاد من مالك بن أنس ﷺ نسأل الله أن يأجره عليه، ولكن قد جاءت آثار أخرى تدل على استحباب كتابة العلم.

(١) ابن فرحون، مرجع سابق، ج(١)، ص ٧٠.

(٢) القاضى عياض، مرجع سابق، ج(١)، ص ص ٧٣: ٧٤.

(٣) - المرجع السابق، ج(١)، ص ٧٤.

- عبد الرحمن الشرقاوى، مرجع سابق، ص ٩١.

• تعظيمه لحديث رسول الله ﷺ :

كان مالك رحمه الله شديد التعظيم والاحترام لحديث الرسول ﷺ فيذكر "ابن أبي أويس: كان مالك إذا أراد أن يُحدِّث توضأً وجلس على صدر فراشه وسرَّح لحيته وتمكن في الجلوس بوقار وهيبة ثم حدث.

ف قيل له في ذلك، فقال: أحب أن أعظم حديث النبي ﷺ ولا أحدث به إلا على طهارة متمكناً. وكان يكره أن يحدث في الطريق وهو قائم أو مستعجل.

فقال: أحب أن يُفهم ما أحدثت به عن رسول الله ﷺ " (١). وكان رحمه الله "إذا رفع أحد صوته عنده قال: أغضض من صوتك فإن الله ﷻ يقول :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ... ﴾ (٢)

فمن رفع صوته عند حديث النبي ﷺ فكأنما رفع صوته فوق رسول ﷺ " (٣).

وكان مالك رحمه الله يرفض أخذ الحديث وهو قائم "قال إبراهيم بن عبد الله بن قريم الأنصاري قاضي المدينة: مر مالك بن أنس على ابن حازم وهو يحدث فجاره، فقيل له فقال إنني لم أجد موضعاً أجلس فيه، فكرهت أن آخذ حديث رسول الله صلى وعليه وسلم وأنا قائم" (٤).

ومما يدل على شدة توقيره واحترامه لحديث الرسول الله ﷺ "قال عبد الله بن المبارك: كنت عند مالك وهو يحدثنا حديث رسول الله ﷺ فلدعته عقرب ست عشرة مرة ومالك يتغير لونه ويصفر ولا يقطع حديث رسول الله ﷺ فلما فرغ من المجلس وتفرق الناس قلت: يا أبا عبد الله لقد رأيت اليوم منك عجباً؟

(١) ابن الجوزي، صفة الصفوة، مرجع سابق، ج(٢)، ص ١٧٨.

(٢) سورة الحجرات : من الآية ٢ .

(٣) ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، مرجع سابق، ج(٩)، ص ٤٣.

(٤) الأصفهاني، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، مرجع سابق، ج(٦)، ص ٣١٨.

فقال: نعم إنما صبرت إجلالاً لحديث رسول الله ﷺ" (١).

• دفاعه عن الحديث:

لقد قيض الله تبارك وتعالى لحفظ سنة نبيه ﷺ رجالاً أفاضاً يقصر اللسان عن ذكر محامدهم ومحاسنهم، هؤلاء الرجال الذين دافعوا عن السنة المطهرة، ودافعوا عنها من صنع الوضاعين وانتحال المفتريين، فاستبرأوا لدينهم بهذا الدفاع، وهذا الجهاد، رحماك اللهم فالاعتراف بآثرهم الحسنة أمرٌ واجبٌ أليسوا هم الذين لولاهم لطالت أيدي أولئك الوضاعين الذين منهم فئةٌ ما دخلت في دين الله إلا للتشويش، فرد الله كيدهم بتنقيب المحدثين عن خرافاتهم فكتشفوا باطلهم فرحم الله تلك الأنفس التي منها إمامنا الحافظ المحدث الفقيه مالك بن أنس، فقد كان مدافعاً كبيراً عن السنة النبوية.

• معرفة مالك بالرجال:

لقد رزق الله سبحانه وتعالى مالك معرفة واسعة، وعلماً غزيراً، فإن مما يزيد قدر راوي الحديث ليس فقط أن يكون عارفاً بالمتون حافظاً لها ولكن أيضاً قدر معرفته بالأسانيد، ورجال الحديث- أي رواته- وقد كانت كلتا المعرفتين مجتمعتين في مالك بن أنس رحمه الله.

وقد شهد بذلك خيارُ الناس وعلماؤهم، ومما يدلنا على ذلك النظر إلى عدد شيوخه وتلاميذه فنجد أنهم يبلغون المئات، علاوةً على أنه كان له درايةٌ واسعةٌ برجال الحديث الشريف، وكفى الإمام مالك شرفاً وتكريماً وصف الإمام الذهبي له بأنه "وقد كان مالك إماماً في نقد الرجال حافظاً مجرداً متقناً" (٢).

"ويورد الإمام ابن المديني: كان مالك صحيح الحديث" (٣).

وقال ابن عيينة "ما كان أشد انتقاد مالك للرجال وأعلمه بشأنهم" (٤).

(١) ابن فرحون، مرجع سابق، ج(١)، ص ص ٩٥: ٩٦.
 (٢) الذهبي، سير أعلام النبلاء، مرجع سابق، ج(٨)، ص ٧٥.
 (٣) أبو حاتم الرازي، مرجع سابق، ج(١)، ص ٤١.
 (٤) ابن حجر العسقلاني، تهذيب التهذيب، مرجع سابق، ج(١٠)، ص ٦.

مالك الناقد:

النقد هو المقصود من المصطلح الحديثي علم الجرح والتعديل، وسوف نرى في الفصول القادمة كيف أن فقهاء المالكية قد حثوا طلبة العلم على أهمية مدرسته لأن الهدف الأساسي منه هو حفظ الديانة من النقص والتزييف، فالله سبحانه وتعالى قد بعث محمداً ﷺ للناس كافة وأنزل عليه القرآن :

﴿...لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾^(١)

فكان ﷺ هو المبين لما أراد الله عز وجل مما أنزل في القرآن وما شرع من أحكام وفرائض وموجبات وآداب ومندوبات، ومكث ﷺ بالمدينة ثلاثاً وعشرين سنةً يدين للناس أمور دينهم فلم يزل على ذلك حتى توفاه الله ﷻ .

فالذي يلزم من ذلك كله: معرفة معاني كتاب الله ﷻ معالم دينه ولا يكون ذلك إلا بالآثار الصحيحة عن رسول الله ﷺ وعن أصحابه النجباء الذين شهدوا التنزيل وعرفوا التأويل رضی الله عنهم أجمعين.

وتعرف الآثار الصحيحة والسلفية بنقد العلماء الجهابذة الذين خصهم الله عز وجل بهذه الفضيلة ورزقهم هذه المعرفة "وقد قيل لعبد الله بن المبارك: هذه الأحاديث المصنوعة؟ قال: يعيش لها الجهابذة"^(٢).

ومن هؤلاء الجهابذة كان مالك بن أنس رحمه الله.

وقد أورد الإمام أبو حاتم الرازي فصلاً في صحة حديث مالك وعلمه بالآثار "قال ابن خالد: أتينا الحجاز فما سمعنا حديثاً ألا تعرف وتنكر إلا مالك بن أنس. وقال يحيى بن معين: أثبت أصحاب الزهدي مالك، ومالك في نافع أثبت عندي من عبيد الله بن عمر وأيوب السختياني. وقال عمرو بن علي: أثبت من روى عن الزهري ممن لا يختلف فيه مالك

(١) سورة النحل : من الآية ٤٤ .

(٢) ابن الصلاح (الإمام أبو عمرو عثمان بن عبد الرحمن الشهرزوري، ت ٦٤٣هـ)، مقدمة ابن الصلاح في علوم الحديث، تحقيق عائشة عبد الرحمن، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، د.ت)، ص ٣.

بن أنس. وقال أحمد بن حنبل: كان مالك بن أنس من أثبت الناس في الحديث، ولا تبالي أن لا تسأل عن رجل روى عنه مالك بن أنس، ولا سيما مديني .
وقال يحيى بن معين: أتريد أن تسأل عن رجال مالك؟ كل من حدّث عنه ثقة إلا رجلاً أو رجلين^(١).

ولما كان الدين قد جاءنا عن الله ﷻ، وعن رسول الله ﷺ بنقل الرواة فقد أوقف مالك بن أنس رحمه الله نفسه على معرفتهم والفحص عنهم والبحث عن أحوالهم فجرّح من جرّح، وعدّل من عدّل. فتطبيقاً لهذا الواجب الذي أوجبه الله ﷻ على العلماء من تبيين الحق للخلف، وتمييز صحيح السنة من سقيمها، اشتهر عن مالك بن أنس أنه كان دقيقاً في تحمّل الحديث، وكان يتحرى الدقة في الرواية مما جعله في مصاف أولئك الأكابر الذين حفظ الله بهم السنة رضى الله عنهم. وقد كان مالك بن أنس رحمه الله يفعل ذلك حسبةً منه.

وقد شهد الإمام البخارى لمالك بن أنس رحمه الله بالصدق والتثبت في نقل الأخبار والآثار حيث أورد "أصح الأسانيد كلها مالك عن نافع عن ابن عمر^(٢).

وقد أنشد السيد أبو المناقب محمد بن حمزة بن إسماعيل الحسينى العلوى^(٣).

| | |
|------------------------------|---------------------------------|
| عليكم بأصحاب الحديث فإنما | محبّتهم فرضٌ لدى الدين والعقل |
| رُعاة حديث المصطفى وروائمه | لحفظهم الإسناد بالضبط والنقل |
| وإتنائهم ذكر النبي محمد | عليه سلام الله فى الكتب بالعقل |
| فكل حديث لم يكن فيه مُسنِّدٌ | إلى مُسنِّدٍ فالخل وذلك والبقول |

وخلاصة القول : هو أن مالك بن أنس رحمه الله كان يقوم بواجب عليه وعلى غيره من العلماء لكى يبين للأمة صحيح السنة من سقيمها، ويبين من يصح أن تؤخذ منه

(١) أبو حاتم الرازى، مرجع سابق، ج (١)، ص ص ١٣ : ١٧.

(٢) ابن الصلاح، مقدمة ابن الصلاح فى علوم الحديث، تحقيق: أبو عبد الرحمن صلاح بن محمد بن عويضة (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٥م)، ص ١٨.

(٣) السمعاني، أدب الإملاء والاستملاء، تحقيق: ماكس فايسفايلر، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨١م)، ص ٧.

الرواية ومن لا يصح أن تؤخذ منه الرواية، ممن لم تتوفر فيهم شروط الضبط أو العدالة التي وضعها العلماء.

فمالك بن أنس كان مؤهلاً للقيام بهذه الوظيفة لما توفر له من الورع والتقوى والحفظ للحديث وإتقانه والتثبت فيه.

• التعرض للرجال الذين ضعّفهم مالك :

كما بينا سابقاً أهمية علم الجرح والتعديل وبيان عمن تؤخذ الرواية، فقد كان لسلف هذه الأمة مجهودات عظيمة في بيان هذا الشأن، وبينوا رحمهم الله الشروط التي يجب أن تتوفر في الراوى لكي يؤخذ منه.

ومن الرجال الذين ضعّفهم مالك بن أنس رحمه الله^(١).

(١) إبراهيم بن أبى يحيى :

قال يحيى بن سعيد القطان سألت مالكا بن أنس عن إبراهيم بن أبى يحيى أكان ثقة؟ قال: لا، ولا ثقة فى دينه.

(٢) أبو الحويرث :

قال بشر بن عمر سألت مالكا عن أبى الحويرث فقال: ليس بثقة.

(٢) أبو جابر البياضى :

وقال بشير بن عمر الزهرانى وسألت مالكا عن محمد بن عبد الرحمن صاحب سعيد بن المسيّب، يعنى أبا جابر البياضى فقال: ليس بثقة، ولاتاخذن عنه شيئاً.

(٤) أصحاب ربيعة :

قال أحمد بن صالح قال مالك بن أنس: كان أصحاب ربيعة أربعة، عبد الرحمن بن عطاء أضع نفسه، وكثير بن فرقد تقدم موته، والثالث أخذ فى الأعاليط، قال أحمد يعنى

(١) راجع فى ذلك:

- المزي، مرجع سابق، ج (١٧)، ص ص ٣٨٥ : ٣٨٦.

- أبو حاتم الرازى، مرجع سابق، ج (١)، ص ص ١٩ : ٢٤.

عبد العزيز بن أبي سلمة، كان صاحب حجاج وكلام، وسكت مالك عن الرابع وهو نفسه قال أحمد: ولم يكن بينهم مثل مالك بن أنس.

(٥) ابن سمعان :

قال عبد الرحمن بن القاسم سألت مالكا عن ابن سمعان فقال: كذاب.

(٦) حرام بن عثمان :

قال بشر بن عمر سألت مالكا عن حرام بن عثمان فقال: ليس بثقة.

(٧) حسين بن عبد الله بن ضمير :

قال عبد العزيز الاويسي: لما خرج إسماعيل بن أبي أويس إلى حسين بن عبد الله بن ضمير وبلغ مالكا هجره (المعنى - أن مالك بن أنس لم يرض حسينا) أربعين يوماً. قال أبو محمد هجر، لأنه لم يرضاه.

(٨) شعبه مولى ابن عباس :

وقال بشير بن عمر الزهراني وسألت مالكا عن شعبه مولى ابن عباس، فقال: ليس بثقة ولا تأخذن عنه شيئا.

(٩) صالح مولى التوأمة :

قال بشير بن عمر الزهراني: سألت مالكا عن صالح مولى التوأمة، فقال: ليس بثقة ولا تأخذن عنه شيئا.

(١٠) عاصم بن عبيد الله :

قال يحيى بن معين: بلغنا عن مالك أنه قال: عجباً من شعبة هذا الذي ينقى الرجال وهو يحدث عن عاصم بن عبيد الله.

(١١) عطاء :

قيل للإمام مالك رحمه الله "لم لا تكتب عن عطاء قال أردت أن آخذ عنه وأردت أن أنظر إلى سمته وأمره، فأتبعته. أتى منير النبي ﷺ فمسح الغاشية والدرجة السفلى

يعنى من المنير فلم أكتب عنه إذاك من فعل العامة والدرجة السفلي والغاشية شيء أصالحه بنو أميه فلما رأيتة لا يفرق بين منبر النبي ﷺ ولا غيره ويفعل فعل العامة تركته" (١).

(١٢) هشام بن عروة :

قال يحيى بن سعيد القطان: رأيت مالكا بن أنس في النوم فسألته عن هشام بن عروة فقال: أما ما حدث به وهو عندنا فهو أى كأنه يصححه، وما حدث به بعد ما خرج من عندنا- فكأنما يوهنه.

وبعد سرد هذه الجملة من الرواة الذين ضعّفهم مالك بن أنس رحمه الله، وإنه بالبحث نجد أن مالكا رحمه الله بالرغم من أنه يضعف هؤلاء الرجال إلا أنه أثنى عنه أنه كان يروى عن بعض الضعفاء "قال عباس الدؤرى عن يحيى بن معين: وقد روى مالك عن عبد الكريم أبى أميه وهو بصرى ضعيف.

وقال هو أو غيره عن يحيى بن معين: كل من روى عند مالك ابن أنس فهو ثقة إلا عبد الكريم البصرى أبو أمية" (٢).

فهذا يدل على أنه كان يروى عن الضعفاء؛ "وقد يُقال لم حدّث- مالك بن أنس رحمه الله- والأئمة الآخرين عن هؤلاء مع علمه بأنهم لا يُحتجّ بهم، يجاب عن ذلك بأجوبة" (٣).

أحدها: أنهم رووها ليعرفوها، وليبينوا ضعفها لئلا يلتبس في وقت عليهم أو على غيرهم أو يتشككوا في صحتها.

الثاني: الضعيف يكتب حديثه، ولكن على سبيل الاعتبار والاستشهاد، ولكنه لا يحتج به على انفراده.

(١) القاضى عياض، مرجع سابق، ج(١)، ص ص ٥٧ : ٥٨.

(٢) المزى، مرجع سابق، ج(١٧)، ص ٣٨٦.

(٣) جمال الدين القاسمى، مرجع سابق، ص ص ١١٤ : ١١٦.

الثالث: رواية الراوى الضعيف يكون فيها الصحيح والضعيف، فيكتبونها، ثم يميزها أهل الحديث والإتقان بعد ذلك، وذلك سهلٌ عليهم، معروفٌ عندهم، وبهذا احتج سفيان حين نهي عن الرواية عن الكلبي، ف قيل له: أنت تروى عنه، فقال: أنا أعلم صدقه من كذبه.

الرابع: أنهم يروون عنهم أحاديث الترغيب والترهيب وفضائل الأعمال، وهذا يجوز عند أهل الحديث وغيرهم التساهل فيه.

وقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية "قد يكون الرجل عندهم ضعيف لكثرة الغلط في حديثه، ويكون حديثه الغالب عليه الصحة، فيروون عنه لأجل الاعتبار به، والاعتضاد به فإن تعدد الطرق وكثرتها يقوى بعضها بعضاً، حتى قد يحصل العلم بها، ولو كان الناقلون فجّاراً أو فسّاقاً؟ فكيف إذا كانوا علماءً عدولاً، ولكن في حديثه الغلط؛ وهذا مثل عبد الله بن لهيعة فإنه من أكابر علماء المسلمين، وكان قاضياً بمصر كثير الحديث، ولكن احترقت كتبه فصار يحدث من حفظه فوق في حديثه غلطٌ كثيرٌ مع أنه الغالب على حديثه الصحة"^(١).

وقد أجاب عن ذلك أيضاً الإمام أحمد: "قد أكتب حديث الرجل للاعتبار به، مثل ابن لهيعة، وأما من عُرف منه أنه يتعمد الكذب فلا يُروى عنه شيء"^(٢).

وخلاصة ذلك أن مالك بن أنس رحمه الله قد برت ذمته من الرواية عن الضعفاء للأسباب التي قدمنا، "وقد قال ابن عبد البر أن سفيان الثوري قال: إني أحب أن أكتب الحديث عن ثلاثة أوجه: حديث أكتبه أريد أن أتخذه ديناً، وحديث رجل أكتبه فأوقفه لا اطرحه ولا أدين به، وحديث رجل ضعيف أحب أن أعرفه ولا أعبأ به. وقد قال الأوزاعي تعلم ما لا يؤخذ به كما تتعلم ما يؤخذ به"^(٣).

(١) المرجع السابق، ص ١١٦.

(٢) المرجع السابق، ص ١١٦.

(٣) المرجع السابق، ص ١١٦.

مالك يدل على الثقات :

كان مالك بن أنس رحمه الله ربما يرجح بين رجلين ويقول هذا أفضل من ذلك وهذا يبين مسألة أخرى في منهج مالك بن أنس في الجرح والتعديل، إذ أنه بهذا الترجيح بين الرجال يدل على الرواية عن الأفضل منهما، فيدل تفضيله لرجل على تعديله له وقبول روايته ويذكر الدكتور محمد أبو زهرة "كان مالك ثبتاً في الحديث عالماً بالرجال موثقاً به في كل ذلك"^(١).

فمن هؤلاء الرجال الذين عدّهم مالك بن أنس، وأرشد الناس إلى التحديث منهم^(٢)
(١) أبو بكر بن محمد بن عمرو بن حزم :

قال ابن وهب: قال مالك: لم يكن عندنا أحدٌ بالمدينة عنده من علم القضاء ما كان عند أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم وكان قاضياً ولأه عمر بن عبد العزيز وكتب إليه أن يكتب له العلم من عند عمرة بنت عبد الرحمن والقاسم بن محمد فكتبه له، ولم يكن على المدينة أنصاري أمير غير أبي بكر بن حزم، وكان قاضياً.

(٢) أيوب السختياني :

"قال مالك: رأيت أيوب السختياني بمكة حجتين فما كتبت عنه ورأيت في الثالثة قاعداً في فناء زمزم فكان إذا ذكر النبي ﷺ عنده يبكي حتى أرحمه؛ فلما رأيت ذلك كتبت عنه"^(٣).

(٢) ابن شهاب :

قال يحيى بن عبد الله بن بكير أخبرني القاسم قال سمعت مالكا يقول: بقي ابن شهاب وما له في الدنيا نظير، وقال خالد بن نزار سمعت مالكا يقول: أول من أسند الحديث ابن شهاب.

(١) محمد أبو زهرة، الحديث والمحدثون، (القاهرة: دار الفكر العربي، ١٣٧٨هـ)، ص ٢٨٨.

(٢) أبو حاتم الرازي، مرجع سابق، ج(١)، ص ٢٠: ٢٢.

(٣) ابن فرحون، مرجع سابق، ج(١)، ص ٦٤.

(٤) زيد بن أسلم :

"قال مالك: أتيت زيد بن أسلم فسمعت حديث عمر أنه حمل على فارس في سبيل الله فاختلفت إليه أياماً أسأله عنه فيحدثني لعله يدخله فيه شكٌ أو معنى فأترك لأنه كان ممن شغله الزهد عن الحديث" (١).

(٥) عمرو بن أبي عمرو مولى المطلب :

"قال الأثرم سألت أحمد بن حنبل عن عمرو بن أبي عمرو مولى المطلب فقال يزين أمره عندي أن مالكاً روى عنه، وقال أبو سعيد بن الأعرابي كان يحيى بن معين يوثق الرجل لرواية مالك عنه سئل عن غير واحدٍ فقال ثقةٌ روى عنه مالك" (٢).

(٦) مخزومة بن بكير بن الأشج :

قال ابن وهب ما ذكر مالك بكير بن الأشج إلا قال: كان من العلماء، قال إسماعيل بن أبي أويس هذا الذي يقول مالك بن أنس حدثني الثقة من هو: هو مخزومة بن بكير بن الأشج، وكان مالك يقول عنه: كان رجلاً صالحاً.

(٧) موسى بن عقبة :

قال معن بن عيسى: كان مالك بن أنس إذا قيل له: مغازي من نكتب؟

قال: عليكم بمغازي موسى بن عقبة فإنه ثقة.

ولقد كان لمالك رحمه الله في تعديله وتجريحه للرجال ألفاظاً خاصة، فتارة يقول عن الراوي في التعديل أنه "ثقة"، وهذا اللفظ مما اتفق عليه المحدثون وأنه من ألفاظ التعديل بل إنه من أولى مراتب التعديل، قال ابن الصلاح "أما ألفاظ التعديل فعلى مراتب: الأولى قال ابن أبي حاتم في كتابه "الجرح والتعديل": إذا قيل للواحد إنه ثقةٌ أو متقنٌ فهو ممن يحتج بحديثه" (٣).

(١) القاضي عياض، مرجع سابق، ج(١)، ص ٥٧.

(٢) السيوطي، تنوير الحوالك شرح على موطأ مالك، مرجع سابق، ج(١)، ص ٤.

(٣) ابن الصلاح، تحقيق: أبو عبد الرحمن صلاح بن محمد بن عويضة، مرجع سابق، ص ٤.

وكذلك كانت له ألفاظٌ أخرى تدل على تعديله للرجال، كأن يقول فلانٌ: رجلٌ صالحٌ أو فلان: ما له في الدنيا نظيرٌ، أو فلان: أول من أسند الحديث.

وقد ألف كثيرٌ من العلماء في هذا العلم - علم الجرح والتعديل - كتباً ومصنفاتٍ فمن هذه التصانيف ما أُفرد للضعفاء فقط ككتاب "الضعفاء" للإمام البخارى، و"كتاب الضعفاء" للإمام النسائى، وكتاب "الضعفاء" للإمام العقيلى. ومنها ما أُفرد للثقات فقط ككتاب "الثقات" لابن حبان البستى، ومنها ما جُمع فيه بين الثقات والضعفاء مثل "تاريخ البخارى"، و"تاريخ ابن أبى خيثمة" و"الجرح والتعديل" لابن أبى حاتم.

ومن الكتب التى صُنفت فى ذلك أيضاً "الكامل" لابن عدى، و"تاريخ بغداد" للخطيب البغدادى، و"تاريخ دمشق" لابن عساكر، و"ميزان الاعتدال" للحافظ الذهبى فبينوا "من هو فى الثقة والتثبت كالسارية، ومن هو فى الثقة كالشباب الصحيح الجسم ومن هولين كمن يوجعه رأسه وهو متماسك يعد من أهل العافية، ومن صفته كمحموم ترجح إلى السلامة، ومن صفته كمريض شبعان من المرض، وآخر كمن سقطت قواه وأشرف على التلف، وهو الذى يسقط حديثه"^(١).

مالك يرشد عن الوضاعين :

من مجهودات مالك بن أنس رحمه الله فى الدفاع عن الحديث، أنه كان يبين ما ضعُف من الأحاديث، ويبين ضعف الرواة والداعى إلى جرحهم وفى سبيل ذلك جرح مالك بن أنس رحمه الله أناساً، واتهمهم بالكذب وبين ذلك فى كثير من الروايات. وقبل أن نوضح ذلك نبين ماهية الحديث الموضوع وخطره، وذلك حتى ندرك ما فعله مالك بن أنس رحمه الله، وما أفاد به الإسلام والمسلمين.

(١) السخاوى، الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، تحقيق: محمد عثمان الخشت، (القاهرة: مكتبة ابن سينا، ١٩٨٩) ص ١٩٩.

الحديث الموضوع "هو الكذب المختلق المصنوع وهو شر الضعيف وأقبحه" (١).
وقال ابن الصلاح: "ولا تحل روايته لأحدٍ علم حاله في أى معنى كان، إلا مقرناً
ببيان وضعه" (٢).

وعلى هذا فلا تجوز رواية الحديث الموضوع إلا مع بيان الحال، سواءً كان فى
الأحكام، أو فى القصص، أو فى الترغيب، أو فى التهيب، أو غيرها. وذلك لقوله ﷺ "من روى
عنى حديثاً وهو يرى أنه كذبٌ فهو أحد الكذابين" (*).

قال القاضى عياض فى الإكمال "أعلم أن الكذابين على ضربين، ضربٌ عرفوا بذلك
فى حديث النبى ﷺ وهم على أنواع: منهم من يضع عليه ما لم يقله أصلاً، إما تراقعاً
أو استخفافاً كالزنادقة، وأشباههم، ممن لم يرع لله وقاراً، أو حسبه بزعمهم وتدنياً، كجهله
المتعبد، الذين وضعوا الأحاديث فى الفضائل والرغائب، وسمعه، كفسقه المحدثين" (٣).

ويُعرف الوضع بطرقٍ عديدةٍ وذكر هذه الطرق يكون فى "علم الحديث" (٤).
وليس مجالها هنا، "وقد قال الربيع بن خثيم: إن للحديث ضوءاً كضوء النهار تعرفه
وظلمه كظلمة الليل تنكره، وقال ابن الجوزى: الحديث المنكر يقشعر له جلد طالب العلم
وينفر منه قلبه" (٥).

- (١) السيوطى، تدريب الراوى فى شرح تقريب النواوى، تحقيق: عزت على عطية، موسى محمد على، ج (١) (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٨٠م)، ص ٣٤٨.
- (٢) ابن الصلاح، تحقيق: عائشة عبد الرحمن، مرجع سابق، ص ٢١٢.
- (*) - الرويانى (الإمام محمد بن هارون الرويانى أبو بكر، ت ٣٠٧هـ)، مسند الرويانى، تحقيق على أبو يمانى، ج (٢) (القاهرة: مؤسسة قرطبة، ١٤١٦هـ)، ص ٧٥.
- الجوهرى (الإمام على بن الجعد بن عبيد أبو الحسن الجوهرى البغدادي، ت ٢٣٠هـ)، مسند ابن الجعد تحقيق
عامر أحمد حيدر، ج (١)، (بيروت: مؤسسة نادر، ١٩٩٠م)، ص ٤١.
- الطيالسى (الإمام سليمان بن داود أبو داود الفارسى البصرى الطيالسى، ت ٢٠٤هـ)، مسند الطيالسى، ج (١) (بيروت: دار المعرفة، د.ت)، ص ٩٤.
- (٣) ابن الصلاح، مرجع سابق، تحقيق: عائشة عبد الرحمن، ص ٢١٧.
- (٤) راجع فى ذلك:
- البلقينى (الإمام سراج الدين عمر بن رسلان البلقينى الشافعى، ت ٨٠٥هـ)، محاسن الاصطلاح فى تضمين ابن
الصلاح، تحقيق: خليل المنصور، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٩م)، ص ٩٨.
- شرف الدين على الراجحى، مصطلح الحديث، (بيروت: دار النهضة العربية، ١٩٨٣م)، ص ١٠٧.
- (٥) جمال الدين القاسمى، مرجع سابق، ص ١٦٥.

ولقد قام العلماء وجهابذة هذه الفن - علم أصول الحديث - بمجهوداتٍ رائعةٍ في هذا الشأن لكي يبينوا ويوضحوا أثر الأحاديث الموضوعة على الأمة في كل زمانٍ ومكانٍ، وبينوا أن خطرها يتركز أساساً على من ليس له درايةٌ بعلوم الحديث عامة، وأرجعوا ابتداءً المبتدعين إلى أمرين هما: الزيادة في الدين والنقص منه.

وقد أقام الله من ينفي عن الحديث الشريف تحريف الغالين، وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين، فدينوا عوارها.

ولقد كان لمالك بن أنس رحمه الله مجهوداتٌ عظيمةٌ في كشف أولئك الوضاعين وكانت عدته في ذلك تقواه لله عز وجل، وعبادته وورعه وعلمه التي نتج عنها بصيرةٌ نافذةٌ نفاذةٌ، وعقلٌ منيرٌ، وكما جاء في الحديث الصحيح "لا يزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها" (*).

ولقد أرشد مالك بن أنس رحمه الله عن الكثير من الكذابين الوضاعين فمن قوله رحمه الله "لا يؤخذ العلم من أربعة، ويؤخذ من سوى ذلك: لا يؤخذ من سفيه، ولا يؤخذ من صاحب هوى يدعوا الناس إلى هواه، ولا من كذاب يكذب في أحاديث الناس، وإن كان لا يتهم على أحاديث رسول الله ﷺ، ولا من شيخٍ له فضلٌ وصلاحٌ وعبادةٌ، إذا كان لا يعرف ما يحدث" (١).

"وقال جعفر القريابي كان من مذهب مالك التقصي والبحث عن حمل عنه العلم ويسمع منه" (٢).

(* ابن رجب الحنبلي (الإمام أبو الفرج عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي، ت ٧٥٠هـ)، جامع العلم والحكم ج (١)، (بيروت: دار المعرفة، ١٤٠٨هـ)، ص ١٨٩.

(١) ابن عبد البر، التمهيد لما في الموطأ من المعاني والمسانيد، مرجع سابق، ج (١)، ص ٥٤.

(٢) السيوطي، تنوير الحوالك شرح على موطأ مالك، مرجع سابق، ج (١)، ص ٤.

" وقال بشر بن عُمر الزُّهرانيّ سألت مالكا عن رجل، فقال: رأيتَه في كُتُبي؟ قلت: لا قال: لو كان ثقةً لرأيتَه في كتبي، وقال عليّ: لا أعلم مالكا ترك إنساناً إلا إنساناً في حديثه شيءٍ" (١).

"قدم حماد بن زيد المدينة لم يأتَه أحدٌ من أصحاب مالك فراح حماد فشكى ذلك إليه. فقال: أنا أمرتهم بذلك .

فقال ولم؟ يا أبا عبد الله؟ قال لأنكم يا أهل العراق تكتبون بالمدينة عمن لا شهادة له عندنا. فيتوهم عليكم أنكم تفعلون هكذا في بلادكم . فرجع حماد فأسقط عامّة علمه" (٢).

"قال عبد الله بن إدريس كنت عند مالك فقال له رجلٌ إن محمد بن إسحاق يقول اعرضوا على علم مالك فإنني أنا بيطاره فقال مالك انظروا إلى دجال من الدجاجلة يقول اعرضوا على علم مالك قال ابن إدريس ما رأيت أحداً جمع الدجال قبله" (٣).

وقال أشهب سئل مالك أيؤخذ ممن لا يحفظ وهو ثقةٌ صحيح أتؤخذ عنه الأحاديث قال لا فقليل له يأتي يكتب فيقول قد سمعتها وهو ثقةٌ أتؤخذ عنه الأحاديث قال أخاف أن يزداد في كتبه بالليل" (٤).

"وقال ابن وهب: سمعت مالك بن أنس يقول: لا تصل خلف القدرية ولا تحمل عنهم الحديث" (٥).

مالك الفقيه :

"تبع الإمام مالك في العلم في سن مبكرة، وجلس للناس يعلم ويفتي في زمان كان يُفتى فيه يحيى بن سعيد الأنصاري وربيعة بن أبي عبد الرحمن، ونافع مولى ابن عمر وأمثالهم، وهؤلاء من شيوخه" (٦).

(١) المرزى، مرجع سابق، ج(١٧)، ص ٣٨٥.

(٢) القاضى عياض، مرجع سابق، ج(١)، ص ٦٩.

(٣) السيوطى، تنوير الحوالك شرح على موطأ مالك، مرجع سابق، ج(١)، ص ٤.

(٤) المرجع السابق، ج(١)، ص ٤٠٣.

(٥) ابن نقطة، مرجع سابق، ص ٤٣٨.

(٦) عبد الغنى الدقر، مرجع سابق، ص ٢٢٦.

وقد قال الإمام مالك رحمه الله " ما جلست - يقصد لرواية الحديث والإفتاء - حتى شهد لى سبعون شيخاً من أهل العلم أنى موضعٌ لذلك" (١).

وقد كان رحمه الله "أستاذ الإمام الشافعى رحمه الله وأخذ عنه -يعنى الإمام الشافعى- الفقه" (٢).

وقال ابن المبارك رحمه الله "لوقيل لى اختر للأمة إماماً اخترت لها مالكا" (٣).

فقد كان رحمه الله "شيخ الأمة" (٤).

وقال عبد الرحمن بن مهدي مالك أفقه من الحكم وحماد.

وقال الشافعى: لولا مالك وسفيان لذهب علم الحجاز" (٥).

وقد كان الإمام مالك رحمه الله يبدأ بنفسه قبل إفتاء الناس فى مسائلهم فيذكر

"إسماعيل بن عبد الله بن أبى أويس: وكان مالك يعمل فى نفسه ما لا يلزمه الناس.

وكان يقول: لا يكون العالم عالماً حتى يعمل فى نفسه بما لا يفتى به الناس، يحتاط

لنفسه ما لو تركه لم يكن عليه فيه إنثم" (٦).

وكان يقول رحمه الله: "ما تعلمت العلم إلا لنفسى وما تعلمت ليحتاج الناس إلى

وكذلك كان الناس" (٧).

ويذكر ابن بكير وغيره أنه أول ما بان من نبوغ الإمام مالك فى الفقه والفتوى "أن

رجلاً أوصى عند وفاته قد زوج ابنتيه من ابنى أخيه وقد أخذ مهورهما ومات الرجل

(١) - الذهبى، العبر فى خبر من غير، مرجع سابق، ج(١)، ص ٢١١.
- محمد أمين فرشوخ، موسوعة عباقرة الإسلام فى العلم والفكر والأدب والقيادة، (بيروت: دار الفكر العربى ١٩٩٢م)، ص ١١٩.

(٢) عماد الدين إسماعيل أبى الفداء، المختصر فى أخبار البشر، م(١)، (القاهرة: مكتبة المثنى، دبت)، ص ١٤.

(٣) القاضى عياض، مرجع سابق، ج(١)، ص ٦٣.

(٤) السيوطى، طبقات الحفاظ، تحقيق: على محمد عمر، (بور سعيد: مكتبة الثقافة الدينية، ١٩٩٦م)، ص ١٠٤.

(٥) أبو حاتم الرازى، مرجع سابق، ج(١)، ص ١٢.

(٦) ابن سعد، مرجع سابق، ج ٥، ص ٤٦٥.

(٧) الذهبى، سير أعلام النبلاء، مرجع سابق، ج(٨)، ص ٦٦.

فأحضر الوالي الناس، وكان الحسن بن يزيد، وفيهم ابن أبي ذئب وابن عمران وابن أبي سيرة، ومالك وهو حدث وذكر المسألة.

فقال جمعهم ذلك جائز ومالك ساكت فقال: ما ترى يا مالك؟

قال: ذلك لا يجوز. فغضب الجميع وقال ابن أبي ذئب: لا يشاء أن يرد علينا إلا رد

فقال الوالي: أصاب وأخطأتم.

ثم قال: من أين قلت يا أبا عبد الله هذا؟

قال: رأيتم إن هديتنا جميعاً إلى زوجها فتعلق كل واحدٍ منهما بهودجٍ واحدٍ كل

واحدة يقول: هي زوجتي دون الأخرى. لمن تقضون بها؟

فسكت القوم. قالوا: أصاب قال: فما ترى يا أبا عبد الله.

قال: النكاح مفسوخ حتى تسمى كل امرأةٍ لرجلٍ معين^(١).

وما يؤكد تمكنه في العلم والفقه والإفتاء "قال ابن الماجشون: مما علم به مالك أن

سارقاً أخذ ومعه قمح وقد سرقه من تاليس لهذا وهذا، حتى اجتمع قمحٌ كثيرٌ فاعترف

بذلك فأحضر الولي من المدينة وفيهم ربيعه ويحيى بن سعيد ومعهم مالك على حداثة سنه

لمعرفتهم بعلمه، فلما أخذوا مجالسهم سألهم الوالي عن المسألة. وأخرج القمح فإذا شبيهه

فكلهم رأى أن عليه القطع ومالك ساكت. فقال له تكلم.

قال: لا قطع عليه فاستعظم ذلك من هناك. وسأله من أين قاله؟

فقال لهم: هل يجب القطع إلا في ربع دينار فصاعداً فأما أن يسرق من هذا التليس

ما يساوي درهماً ومن هذا ما يساوي درهماً هكذا فهذا لا قطع عليه. فانصرف الناس وقد

بان فضل علمه^(٢).

(١) القاضى عياض، مرجع سابق، ج(١)، ص ص ٥٩ : ٦٠.

(٢) المرجع السابق، ج(١)، ص ٦٠.

وهكذا فقد أخذ هذا الغلام الأصبحى يرتقى فى مراتب الإفتاء والنبوغ "قال الحارث: أوصى ابن هرمز مالكاً وعبد العزيز بن أبى سلمة إذا دخلتما على السلطان فكونا آخر من يتكلم. فلزم مالك وصيته فبلغنى أنه حضر عند الأمير مع ابن أبى ذئب ونظرأته فاستفتاهم فى رجل أقر على نفسه بالقتل عمداً فأفتى كلهم بالقتل إلا أن يعفو الأولياء ومالك ساكت.

فسأله فقال : أنظر وهو مطروقٌ. ثم سأله فقال: هو القتل حتى أنظر. فقالوا: ما تنظر رجلٌ أقر أنه قتل عمداً أى شيء هذا؟

فقال : أين القاتل المقر؟ فإذا فتى حدث السن فقال: منذ كم حُبس، قيل- منذ كذا فإذا حبسه وإقراره قبل أن يحتلم، فسرح. وهذا والله أعلم أنه أنكر إقراره ورجع عنه^(١).
"قال مطروح بن شاكر: جلس ابن شهاب وربيعه ومالك، فألقى ابن شهاب مسألةً فأجاب فيها ربيعةً، وصمت مالك.

فقال له ابن شهاب: لِمَ لا تجيب قال قد أجب الأستاذ أو نحوه.
فقال ابن شهاب ما نفترق حتى تجيب. فأجاب بخلاف جواب ربيعة.
فقال ابن شهاب ارجعوا بنا إلى قول مالك"^(٢).

وهكذا حتى صار الإمام مالك "مقصد المستفتين من أقصى بلاد الإسلام مغرباً ومشرقاً، وأقام على ذلك دهوراً وكان فى المدينة هو الرأس، وكان له من علمه، ورفعته ذكره وشهرة اسمه سلطان يمنع به المتعالين أن يفتوا الناس قبل أن يشهد لهم العلماء بذلك خشية أن يتناول إلى الفتيا من لا يصلح لها فيفسد على الناس دينهم، فلا يجروا واحداً ولو كان عالماً- أن يُفتى فى المسجد النبوى أو فى المدينة المنورة، ولو بمسألة واحدة، إذا لم يقر له الإمام مالك بعد أن يسأل عنه من بقى من كبار الشيوخ"^(٣).

(١) المرجع السابق، ج(١)، ص ٦٠.

(٢) المرجع السابق، ج(١)، ص ٦٦.

(٣) عبد الغنى الذقر، مرجع سابق، ص ٢٢٨.

وهكذا حتى "قال ابن وهب: سمعتُ منادياً ينادى بالمدينة ألا لا يفتى الناس إلا مالك بن أنس وابن أبي ذئب" (١).

منهج مالك بن أنس في الفتيا :

وضع الإمام مالك رحمه الله منهجاً للفتيا أصبح فيما بعد نبراساً لكل علماء عصره ومن تبعهم، ومن قواعد هذا المنهج:

الدقة والتحرى في الفتيا :

كان الإمام مالك رحمه الله إماماً عظيماً وفقيحاً كبيراً ومع ذلك كان شديد الخوف من الإفتاء والرد على مسائل الطالبين "قال ابن القاسم: سمعت مالكا يقول: إنى لأفكر فى مسألة منذ بضع عشرة سنة فما اتفق لى فيها رأى إلى الآن" (٢).
 "وقال خالد بن خدّاش: قدمت على مالك بأربعين مسألة فما أجابنى منها إلا فى خمس مسائل" (٣).

"وقال ابن عبد الحكم: كان مالك إذا سُئِلَ عن المسألة قال للسائل انصرف حتى أنظر فيها: فينصرف ويتردد فيها. فقلنا له فى ذلك، فبكى وقال: إنى أخاف أن يكون لى من السائل يوم وأى يوم.

قال وزاده كان مالك إذا جلس نكس رأسه ويحرك شفّتيه بذكر الله ولم يلتفت يمينا ولا شمالاً، وزاده، فإذا سئل عن مسألة تغير لونه وكان أحمر بصفرة فيصفر وينكس رأسه ويحرك شفّتيه. ثم يقول: ما شاء الله لا حول ولا قوة إلا بالله فربما يسأل عن خمسين مسألة فلا يجيب منها فى الواحدة" (٤).

(١) البيهقي (الإمام أبو محمد عبد الله بن أسعد بن علي بن سليمان البيهقي اليمني المكي، ت ٧٦٨هـ)، مرآة الجنات وعبر اليقظان، تحقيق: خليل المنصور، ج(١)، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٧م)، ص ٢٩١.

(٢) ابن فرحون، مرجع سابق، ج(١)، ص ٦٩.

(٣) الذهبي، سير أعلام النبلاء، مرجع سابق، ج(٨)، ص ٧٧.

(٤) القاضي عياض، مرجع سابق، ج(١)، ص ٧٠.

"وقال إسماعيل بن أبي أويس كان خالي مالك لا يفتى حتى يقول لا حول ولا قوة إلا بالله" (١)، "وقيل: كان مالك كلما جلس مجلساً، لا ينطق بشيء حتى يقول . قال تعالى :
 ﴿... سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ (٢)
 "ويروى أن سعيداً كلما نسي شيئاً، يقول هذه الكلمات فيذكره" (٣).

"وقال بعضهم: لكأنما مالك والله إذا سئل عن مسألة واقف بين الجنة والنار وكان يقول: من أحب أن يجيب عن مسألة فليعرض نفسه قبل أن يجيب على الجنة والنار وكيف يكون خلاصه في الآخرة، ثم يجيب. وقال: ما شيء أشد على من أن أسأل عن مسألة من الحلال والحرام، كأن هذا هو القطع في حكم الله ولقد أدركت أهل العلم والفقهاء ببلدنا وأحدهم إذا سئل عن مسألة كأن الموت أشرف عليه. ورأيت أهل زماننا هذا يشتهون الكلام فيه والفتيا، ولو وقفوا على ما يصيرون إليه غداً لقللوا من هذا، وإن عمر بن الخطاب وعلياً وعلقمة خيبر الصحابة كانت تتردد عليهم المسائل وهم خير القرون الذين فيهم النبي ﷺ وكانوا يجمعون أصحاب النبي ﷺ ويسألون حينئذ ثم يفتون فيها، وأهل زماننا هذا قد صار فخرهم الفتيا فبقدر ذلك يفتح لهم في العلم. قال: لم يكن من أمر الناس ولا من مضى ولا من سلفنا الذين يقتدى بهم ويعول الإسلام عليهم أن يقول: هذا حرامٌ وهذا حلالٌ ولكن يقول: أنا أكره كذا وأحب كذا. وأما حلالٌ وحرامٌ فهذا الافتراء على الله، أما سمعت قوله تعالى:

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ...﴾ (٤)

لأن الحلال ما أحله الله ورسوله، والحرام ما حرماه" (٥).

(١) الذهبي، تذكرة الحفاظ، مرجع سابق، ج(١)، ص ٢١٢.

(٢) سورة البقرة: من الآية ٣٢.

(٣) بطاش كبرى زاده، مرجع سابق، ج(٢)، ص ص ١٩٨: ١٩٩.

(٤) سورة يونس: من الآية ٥٩.

(٥) القاضي عياض، مرجع سابق، ج(١)، ص ٧١.

وكان الإمام مالك رحمه الله يقول: "ربما وردت على المسألة فأسهر فيها عامة ليلتي" (١).

"وقال عبد الرحمن العمري: قال لي مالك ربما وردت على المسألة تمنعني من الطعام والشراب والنوم فقلت يا أبا عبد الله: ما كلامك عند الناس إلا كنفش في حجر، ما تقول شيئاً إلا تلقوه منك. قال فمن أحق أن يكون كذا إلا من كان كذا" (٢).
"وقيل أنه بكى في مرض موته وقال والله لوددت أني ضربت في كل مسألة أفئتت بها ليلتي لم أفئت بالرأى" (٣).

"وقال معن بن عيسى: سمعت مالكا يقول: إنما أنا بشرٌ أخطئ وأصيب فانظروا في رأبي فكلما وافق الكتاب والسنة فخذوا به، وما لم يوافق الكتاب والسنة فاتركوه" (٤).
تبنى شععار "لا أدري":

"كان هذا شععار مالك، يتعجل بقوله "لا أدري" حين يُسأل ولا تُستكمل لديه أدلة المسألة من جوانبها كلها، فيتدرع بشعاره هذا، فإذا وضح لديه الجواب، ولم يبق فيه أدنى ريب في نفسه أجاب، وإلا قال: لا أدري. وكلمة "لا أدري" ليس كل الناس يستطيعها، وما يستطيعها إلا الأقوياء بالله، الذين يؤثرون رضاه والجنة ويخشون غضبه والنار، يقول مالك: جنة العالم "لا أدري" إذا أغفلها أصيبت مقاتله" (٥).

"قال عبد الرحمن بن مهدي: كنا عند مالك بن أنس فجاء رجل فقال: يا أبا عبد الله جئتك من مسيرة ستة أشهر، حملني أهل بلادي مسألة أسألك عنها.
قال فسل: قال فسأل الرجل عن أشياء.

(١) ابن فرحون، مرجع سابق، ج(١)، ص ٦٩.
(٢) القاضي عياض، مرجع سابق، ج(١)، ص ٧٠.
(٣) - ابن خلكان (الإمام أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان، ت ٦٨١هـ)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، م(٤)، (بيروت: دار الثقافة، د.ت)، ص ص ١٣٧: ١٣٨.
- ابن العماد الحنبلي، مرجع سابق، ج(١)، ص ٧٢.
(٤) القاضي عياض، مرجع سابق، ج(١)، ص ٧٢.
(٥) عبد الغني الدقر، مرجع سابق، ص ٢٤١.

فقال: لا أحسن .

قال: فقطع بالرجل وكأنه قد جاء إلى من يعلم كل شيء .

قال: وأي شيء أقول لأهل بلادى إذا رجعت إليهم؟

قال: تقول لهم قال مالك بن أنس: لا أحسن^(١).

"وقال الهيثم بن جميل سمعت مالكا سئل عن ثمان وأربعين مسألة فأجاب فى اثنتين وثلاثين منها ب "لا أدرى" وقال ابن هرمن: ينبغى للعالم أن يورث جلساءه قول لا أدرى حتى يكون ذلك أصلاً يفرعون إليه. وقال ابن عبد البر صرح عن أبى الدرداء لا أدرى نصف العلم"^(٢).

"وقال عمر بن يزيد- شيخ من أهل مصر- صديق لمالك ابن أنس قال: قلت لمالك يا أبا عبد الله يا أبا عبد الله يأتيك ناسٌ من بلدانٍ شتى قد أنضوا مطاياهم، وأنفقوا نفقاتهم، يسألونك عما جعل الله عندك من العلم تقول لا أدرى!!

فقال: يا عبد الله يأتينى الشامى من شامه، والعراقى من عراقه، والمصرى من مصره، فيسألونى عن الشىء لعلى أن يبدو لى فيه غير ما أجيب به فإين أجدهم؟"^(٣).

"وقال بعضهم: إذا قلت أنت يا أبا عبد الله لا أدرى فمن يدرى .

قال: ويحك ما عرفتنى؟ وما أنا وأى شيءٍ منزلتى حتى أدرى ما لا تدرون.

ثم أخذ يحتج بحديث ابن عمر، يقول لا أدرى فمن أنا، وإنما أهلك الناس العجب وطلب الرئاسة. وهذا يضحلّ عن القليل.

وقال مرةً أخرى: قد ابتلى عمر بن الخطاب بهذه الأشياء. فلم يجب فيها.

قال ابن الزبير لا أدرى، وابن عمر لا أدرى وقال مصعب: سئل مالك عن مسألة

فقال: لا أدرى.

(١) أبو حاتم الرازى، مرجع سابق، ج(١)، ص ١٨٠.

(٢) الذهبى، سير أعلام النبلاء، مرجع سابق، ج(٨)، ص ٧٧.

(٣) الأصفهاني، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، مرجع سابق، ج(٦)، ص ٣٢٤.

فقال له السائل إنها مسألة خفيفة سهلة، وإنما أردت أن أعلم بها الأميرة وكان السائل ذا قدر فغضب مالك وقال: مسألة خفيفة سهلة ليس في العلم شيء خفيف أما سمعت قول الله تعالى:

﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴾^(١)

فالعلم كله ثقيل وبخاصة ما يسأل عنه يوم القيامة.

"قال بعضهم: ما سمعت قطاً أكثر قولاً من مالك لا حول ولا قوة إلا بالله. ولو شاء أن تصرف بالواحانا مملوءة بقوله لا أدري"^(٢).

كراهة الجدل في الدين :

"ليس من الجدل في الدين أن يبحث في مسألة من الدين يريد بذلك معرفتها بيقين يؤيده الدليل. والجدال المكروه الذي يريد به المجادل أن يظهر على من يجادله، ليبدو عالماً قادراً يستثير الحجة. وقد يكون المجادل في الدين هو الذي كلما تخيل فرضاً وأقام عليه الدليل تخيل فرضاً أبعد، وأقام عليه الدليل، وهكذا إلى أن ينتهي إلى حال يُرى فيها أنه لم يعد يبحث في الدين، وإنما في كلام لا معنى له، بل هو بعيد كل البعد عن مقاصد الدين، وكلا الأمرين لا يُحمد في الدين صاحبهما"^(٣).

"وكان مالك يقول: المرء والجدال في العلم يذهب بنور العلم من قلب العبد. قال ابن وهب: وسمعت مالكا يقول إذا جاء أحد من أهل الأهواء أما أنا فعلى بينة من ربي.

وأما أنت فشاك"؛ فاذهب إلى شاكٍ مثلك فخاصمه ثم قرأ :

﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ^ط وَسُبْحٰنَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾^(٤)

(١) سورة المزمل : من الآية ٥ .

(٢) القاضي عياض، مرجع سابق، ج(١)، ص ص ٧٢ : ٧٣ .

(٣) عبد الغنى الدقر، مرجع سابق، ص ٢٤٤ .

(٤) سورة يوسف : من الآية ١٠٨ ، ابن فرحون، مرجع سابق، ج(١)، ص ٧١ .

"قال معن: انصرف مالك يوماً إلى المسجد وهو متكئ على يديه فلحقه رجلٌ يقال له أبو الجويرة يُتَّهَمُ بالأرجاء .

فقال: يا أبا عبد الله إسمع مني شيئاً أعلمك به وأحاجك وأخبرك برأى.

فقال: احذر أن أشهد عليك .

قال: والله ما أريد إلا الحق اسمع فإن كان صواباً فقل إنه أو فتكلم .

فقال: فإن غلبتني. قال اتبعني.

قال: فإن غلبتك.

قال أتبعك.

قال فإن جاء رجل فكلمناه فغلبنا.

قال: اتبعناه.

فقال له مالك يا عبد الله: بعث الله محمداً بدين واحدٍ وأدراك تنتقل.

وقال عمر بن عبد العزيز: من جعل دينه عرضاً للخصومات أكثر التنقل" (١).

"وجاءه رجلٌ من أهل المغرب فقال: إن الأهواء كَثُرَتْ ببلادنا فجعلت على نفسى إن

أنا رأيتك أن آخذ بما تأمرنى به. فوصف له مالك رحمه الله شرائع الإسلام: الصلاة والصوم، والزكاة، والحج.

ثم قال: خذ بهذا ولا تخاصم أحداً" (٢). "وقال مالك: كلما جاءنا رجلٌ أجدل من رجلٍ

تركنا ما نزل به جبريل على محمد ﷺ لجداله" (٣).

"وقال مالك: ليس الجدل فى الدين بشيءٍ" (٤).

"وقال مالك: المرء والجدال فى العلم يذهب بنور العلم من قلب العبد.

(١) القاضى عياض، مرجع سابق، ج(١)، ص ٨٧

(٢) ابن فرحون، مرجع سابق، ج(١)، ص ٧١.

(٣) عبد الغنى الدقر، مرجع سابق، ص ٢٤٤

(٤) الذهبى، سير أعلام النبلاء، مرجع سابق، ج(٨)، ص ١٠٨.

وقال: إنه يقسى القلب ويورث الضغن" (١).

"وقال ابن دهب: سمعته - أى مالك - يقول قلت لأمير المؤمنين فيمن يتكلم فى هذه

المسائل المعضلة الكلام فيها يا أمير المؤمنين يورث البغضاء" (٢).

"وقال الزهرى: رأيت مالكا، وقوماً يتجادلون عنده فقام ونفض رداءه وقال إنما أنتم

حربٌ.

قال الهيثم بن جميل قيل لمالك: الرجل له علم بالسنة يجادل عنها؟

قال: لا. ولكن يخبر بالسنة - فإن قيل منه وإلا سكت.

قال أبو طالب المكي: كان مالك أبعد الناس عن مذاهب المتكلمين وأشدهم بغضاً

للعراقيين وإلزامهم لسنة السابقين من الصحابة والتابعين" (٣).

"قال معن بن عيسى: قدم هارون أمير المؤمنين ليحج ومعه أبو يوسف فأتى مالك

أمير المؤمنين فقربه وأكرمه فلما جلس أقبل عليه أبو يوسف فسأله عن مسألة فلم يجبه ثم

عاد فسأله فلم يجبه فقال أمير المؤمنين يا أبا عبد الله هذا قاضينا يعقوب يسألك فأقبل

عليه مالك فقال يا هذا إذا رأيتنى جلست لأهل الباطل فتعال أجبك معهم" (٤).

أبرز وصايا مالك فى العلم:

أفرد الإمام مالك بن أنس رحمه الله مجموعةً من الوصايا تتعلق بطلب العلم فضلاً

عما يخص العالم والمتعلم منها ما يلى:

• طلب العلم :

"سئل رحمه الله عن طلب العلم: أفريضة هو؟

قال: لا ولكن يُطلب ما ينتفع به، ولا يطلب الأغاليط والإكثار.

(١) القاضى عياض، مرجع سابق، ج(١)، ص ٨٧.

(٢) الذهبى، سير أعلام النبلاء، مرجع سابق، ج(٨)، ص ١٠٨.

(٣) القاضى عياض، مرجع سابق، ج(١)، ص ٨٧.

(٤) الذهبى، تذكرة الحفاظ، مرجع سابق، ج(١)، ص ٢١٠.

وقال: من إدالة العلم أن تجيب كل من سألك، ولا يكون إماماً من حدث بكل ما سَمِعَ، ومن إدالة العلم أن تنطق به قبل أن تُسأل عنه.

وقال في سماع أشهب وابن وهب وابن القاسم: من صدّق في حديثه مُتَّع بعقله، ولم يصبه ما يصيب الناس من الهم والخوف.

وقال: طلب الرزق في شبهة أحسن من الحاجة إلى الناس" (١).

"قال عبد الله بن وهب: سمعت مالك بن أنس يقول: ليس العلم بكثرة الرواية وإنما هو نُورٌ يضعه الله في القلب.

وقيل لمالك بن أنس: ما تقول في طلب العلم؟

قال: حسنٌ جميلٌ، ولكن انظر إلى الذي يلزمك من حين تُصبح إلى حين تَمسى فالزمه" (٢).

"قال القعنبي: سمعت مالك بن أنس يقول: كان الرجل يختلف إلى الرجل ثلاثين سنةً يتعلم منه" (٣).

"وقيل له ما أفضل ما يصنع العبد؟ قال: طلب العلم" (٤).

• الوقار والسكينة لطلب العلم :

"قال ابن وهب: سمعت مالك بن أنس يقول: قال عيسى بن مريم عليهما السلام تأتي أمة محمد ﷺ علماء حكماء كأنهم من الفقه أنبياء.

قال مالك أراهم صدر هذه الأمة.

قال مالك: وحق على من طلب العلم أن يكون له وقارٌ وسكينةٌ وخشيةٌ، والعلمُ حسنٌ لمن رُزقَ خيرهِ، وهو قسمٌ من الله فلا تمكن الناس من نفسك، فإن من سعادة المرء أن يوفق

(١) ابن فرحون، مرجع سابق، ج(١)، ص ٧١

(٢) ابن الجوزي، صفة الصفة، مرجع سابق، ج(٢)، ص ١٧٩.

(٣) الأصفهاني، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، مرجع سابق، ج(٦)، ص ٣٢٠.

(٤) القاضي عياض، مرجع سابق، ج(١)، ص ٩٧.

للخير، وإن من شقوة المرء أن لا يزال يخطئ، وذل وإهانة للعلم أن يتكلم الرجل بالعلم عند من لا يطيعه" (١).

• إعزاز العلم :

كان الإمام مالك بن أنس رحمه الله من أشد العلماء الفقهاء المحدثين إعزازاً للعلم "قال عتيق بن يعقوب الزبيدي: قدم هارون الرشيد المدينة وكان قد بلغه أن مالك بن أنس عنده الموطأ يقرؤه على الناس فوجه إليه اليرمكى فقال اقراءه السلام وقل له يحمل إلى الكتاب ويقرؤه على فاتاه اليرمكى فقال اقراءه السلام وقل له إن العلم يؤتى ولا يأتي فأتاه اليرمكى فأخبره وكان عنده أبو يوسف القاضي فقال يا أمير المؤمنين يبلغ أهل العراق أنك وجهت إلى مالك في أمر فخالفك اعزم عليه فبينما هو كذلك إذ دخل مالك فسلم وجلس فقال له الرشيد يا ابن أبي عامر ابعث إليك وتخالفني فقال يا أمير المؤمنين أخبرني الزهري عن خارجه بن زيد عن أبيه قال كنت أكتب الوحي بين يدي رسول الله ﷺ :

﴿ لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ... ﴾ (٢)

وابن أم مكتوم عند النبي ﷺ فقال يا رسول الله إني رجلٌ ضريبٌ وقد أنزل الله عليك في فضل الجهاد ما قد علمت فقال النبي ﷺ "لا أدري" وقلمى رطب ما جف ثم وقع فخذ النبي ﷺ على فخذى ثم أغمى على النبي ﷺ ثم جلس النبي ﷺ فقال يا زيد اكتب "غير أولى الضرر" ويا أمير المؤمنين حرفٌ واحدٌ بعث فيه جبريل والملائكة عليهم السلام من مسيرة خمسين ألف عام ألا ينبغي لى أن أعزه وأجله وإن الله تعالى رفعك وجعلك فى هذا الموضع بعملك فلا تكن أنت أول من يضيع عز العلم فيضيع الله عزك فقام الرشيد يمشى مع مالك إلى منزله ليسمع من الموطأ فأجلسه معه على المنصة فلما أراد أن يقرأه على مالك قال لى تقرؤه على قال ما قرأته على أحد منذ زمان قال فيخرج الناس عنى حتى أقرأه أنا

(١) الأصفهاني، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، مرجع سابق، ج(٦)، ص ٣٢٠.

(٢) سورة يوسف : من الآية ١٠٨ ، ابن فرحون، مرجع سابق، ج(١)، ص ٧١.

عليك فقال إن العلم إذا منع من العامة لأجل الخاصة لم ينفع الله تعالى به الخاصة فأمر معن بن عيسى القزاز ليقراه عليه فلما بدأ ليقراه قال مالك لهارون يا أمير المؤمنين أدركت أهل العلم ببلدنا وأنهم ليحبون التواضع للعلم فنزل هارون عن المنصة وجلس بين يديه وسمعه^(١).

ومن النص السابق يرسى الإمام مالك رحمه الله فضلاً عن إعزازه للعلم وتقديره العظيم له واحترامه الشديد لمكانته، فقد وضع إحدى مبادئ التعليم التي تكاد تكون قد غابت عن واقعنا التعليمي المعاصر وهي ديمقراطية التعليم وجلوس أولاد الخاصة مع أولاد العامة لتلقى العلم لأنه لا نفع في علمٍ قُصِرَ على الخاصة. ومن النصوص الأخرى التي تدل على إعزازه للعلم أيضاً قيل "بعث هارون إلى مالك يستحضره مجلسه، ليسمع منه ابناه الأمين والمأمون .

فقال له: يا أبا عبد الله، ينبغي أن تختلف إلينا حتى يسمع صبياننا منك الموطأ . قال: قلت: أعز الله أمير المؤمنين، إن هذا العلم منكم خرج، فإن أنتم أعزتموه يعن وإن أدلتموه ذل، والعلم يؤتى ولا يأتي .

فقال: صدقت: أخرجنا إلى المسجد حتى تسمعا مع الناس.

قال مالك: بشريطة ألا يتخطيا رقاب الناس، ويجلسا حيث انتهى بهما المجلس، فحضراه بهذا الشرط"^(٢).

• المعاناة في طلب العلم :

"قال ابن وهب عن مالك قال: لا يبلغ أحد ما يريد من هذا العلم حتى يضربه الفقر ويؤثره على كل حاجة"^(٣).

(١) ابن العماد الحنبلي، مرجع سابق، ج(١)، ص ص ٢٩٠ : ٢٩١ .

(٢) بطاش كبرى زاده، مرجع سابق، م(٢)، ص ١٩٧ .

(٣) الأصفهاني، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، مرجع سابق، ج(٦)، ص ٣٣١ .

• صفة مجلس العلم :

"قال الفقيه القاضي أبو الفضل عياض رحمة الله عليه .

قال الواقدي : كان مالك يجلس على ضجاج ونمارق مطروحة في منزله يمينه ويسره لمن يأتي من قريش والأنصار والناس .

وكان مجلسه مجلس وقار وعلم، وكان رجلاً مصيباً نبيلاً ليس في مجلسه شيء من المراء واللمغظ ولا رفع صوت إذا سئل عن شيء فأجاب سائله لم يقل له من أين رأيت هذا. وكان الغريب يسألونه عن الحديث والحديثين فيجيبهم الفينة بعد الفينة. وقال أبو مصعب وابن الضحاك ومطرف والمهدى وعبد الملك وابن سلمة وغير واحد من أصحابه كان جلساء مالك كأنما على رؤوسهم الطير تسمتاً وأدباً، وقال حبيب كان مالك إذا جلس جلسة لم يتحول عنها حتى يقوم. وقيل كان الثوري في مجلسه فلما رأى إجلال الناس له وإجلاله للعلم أنشد^(١):

يأبى الجواب فلا يراجع هيبة فالسائلون نواكس الأذقان
أدب الوقار وعن سلطان التقى فهو المهيب وليس ذا سلطان
وقال الإمام مالك رحمه الله "لا تجلس في مجلس لا تستفيد منه علماً"^(٢).

• ترك الشاذ من العلم :

"قال عبد الرحمن بن مهدي: لا يكون إماماً في العلم من أخذ بالشاذ من العلم، ولا يكون إماماً في العلم من يروي من كل أحد، ولا يكون إماماً في العلم من روى كل ما سمع قال: والحفظ والإتقان.

قال أبو عمر: معلوم أن مالكا كان من أشد الناس تركاً للشذوذ العلم"^(٣).

(١) القاضي عياض، مرجع سابق، ج(١)، ص ص ٧٦: ٨٥.

(٢) المرجع السابق، ج(١)، ص ٩٧.

(٣) ابن عبد البر، التمهيد لما في الموطأ من المعاني والمسانيد، مرجع سابق، ج(١)، ص ٥٣.

ويذكر الإمام جمال الدين القاسمي "قال مالك: شرُّ العلم الغريب، وخيرُ العلم الظاهرُ الذي قد رواه الناس" (١).

• التزام العالم الصمت والوقار

يذكر الإمام مالك "من آداب العالم أن لا يضحك إلا تبسماً" (٢).

• أصناف الناس في العلم

قال الإمام مالك "الناس في العلم أربعة: رجلٌ علمٌ فعملٌ به فمثله في كتاب الله

قوله:

﴿... إِنَّمَا تَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ...﴾ (٣)

ورجل علم به ولم يعلمه فمثله في كتاب الله :

﴿... الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَأَهْدَى...﴾ (٤)

ورجل علم علماً وعلمه ولم يعمل به فمثله في كتاب الله :

﴿... إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ...﴾ (٥)

• نشر العلم وبذله لأهله :

قال الإمام مالك "اتقوا الله وانثروا هذا العلم وعلموه ولا تكتموه" (٦).

• معنى العلم :

قال الإمام مالك "ليس العلم بكثرة الرواية وإنما العلم نورٌ يضعه الله في القلوب.

وقال : العلم نورٌ لا يأنس إلا بقلبٍ تقيٍ خاشعٍ" (٧).

"وقال سفيان: دخلت على مالك فقلت له: إن العلم كثيرٌ

(١) جمال الدين القاسمي، مرجع سابق، ص ١٢٥.

(٢) القاضى عياض، مرجع سابق، ج(١)، ص ١٠٠.

(٣) سورة فاطر : من الآية ٢٨ .

(٤) سورة البقرة : من الآية ١٥٩ .

(٥) سورة الفرقان : من الآية ٤٤ ، المرجع السابق، ج(١)، ص ١٠٠.

(٦) المرجع السابق، ج(١)، ص ص ٩٩ : ١٠٠.

(٧) المرجع السابق، ج(١)، ص ٩٦.

فقال: العلم شجرة أصلها بمكة وأغصانها بالمدينة وأوراقها بالعراق وثمراتها بخراسان^(١).

مؤلفاته:

كتب الإمام مالك بن أنس رحمه الله في موضوعات شتى ولم يترك لنا الكثير من هذه المؤلفات نظراً لما قد يكون قد شغله عن التأليف من تحديث وإفتاء. وعلى الرغم من انشغاله هذا فقد ترك لنا من المؤلفات ما كانت عظمتها فيما حوته من دُرر نفيسة ويكفي أنه قام بالتصنيف في السنة النبوية حيث إن التصنيف فيها من أعظم الأعمال عند الله تعالى.

ومن مؤلفاته:

(١) الموطأ :

"وهو كتاب حديث وفقه^(٢)". وقد ورد إلينا بروايات متعددة حاول أكثر من فقيه إحصاءها وأشهر التي وردت إلينا رواية يحيى بن يحيى الليثي ثم محمد بن الحسن الشيباني ثم ابن زياد ثم يحيى بن بكير وغيرها. ومن التي وصلتنا ولم تنزل مخطوطة حسب علمنا رواية عبد الله بن وهب ثم ابن القاسم^(٣).

أشهر شروح الموطأ:

ذكر الإمام حاجي خليفة أشهر الشروح والمختصرات التي قامت على الموطأ منها^(٤):

(١) المرجع السابق، ج(١)، ص ٩٧ : ٩٨.

(٢) العجلي، مرجع سابق، ص ٤١٧.

(٣) أبو بكر الطووشى، كتاب الحوادث والبدع، تحقيق: عبد المجيد تركى، (تونس: دار الغرب الإسلامى، ١٩٩٠م) ص ٤٢٤.

(٤) حاجي خليفة (الإمام مصطفى بن عبد الله القسطنطى الرومى الحنفى، ت ١٠٦٧هـ)، كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون، م(٢)، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٢م)، ص ١٩٠٧ : ١٩٠٨.

- شرحه أبو محمد عبد الله بن محمد النحوي البطليموسى المتوفى سنة إحدى وعشرين وخمسمائة.
- شرحه أبو مروان عبد الملك بن حبيب المالكي المتوفى سنة تسعة وثلاثين ومائتين.
- شرحه الشيخ جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي وسماه "كشف المغطا في شرح الموطأ، وله "تنوير الحوالك على موطأ (الإمام) مالك وجرّد أحاديثه في كتاب أيضاً، وله كتاب آخر وهو المسمى "إسعاف المبطل في رجال الموطأ" وتوفى سنة إحدى عشرة وتسعمائة.
- صنف الحافظ أبو عمر ابن عبد البر يوسف بن عبد الله القرطبي كتاباً سماه "التفصلي بحديث الموطأ، وله كتاب "التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد" وتوفى سنة ثلاثين وستين وأربعمائة.
- اختصره الإمام ابن حزم وسماه "الاستذكار" وقال: هو كتاب في الفقه والحديث ولا أعلم نظيره.
- شرحه أبو الوليد سليمان بن خلف الباجي وسماه "المنتقى" في سبع مجلدات وله شرح آخر سماه "الاستيفاء في شرح الموطأ"، وتوفى سنة أربع وسبعين وأربعمائة.
- انتقاه ابن رشيّق القيرواني، المتوفى سنة ست وخمسين وأربعمائة.
- شرحه القاضي الحافظ أبو بكر محمد بن العربي وسماه "القبس"، وقال: هذا أول كتاب ألف في شرائع الإسلام وهو آخره لأنه لم يؤلف مثله إذ بناه مالك رحمه الله على تمهيد الأصول للفروع ونبه فيه على معظم أصول الفقه التي يرجع إليها مسائله وفروعه، وتوفى سنة ست وأربعين وخمسمائة.
- لخصه أبو الحسن علي بن محمد بن خلف القابسي وهو المشهور بـ "ملخص الموطأ" مشتمل على خمسمائة وعشرين حديثاً متصل الإسناد واقتصر على رواية

أبى عبد الله عبد الرحمن ابن القاسم المصرى من رواية أبى سعيد سحنون بن سعيد.

- شرحه- يعنى موطأ مالك- خاتمة المحدثين محمد بن عبد الباقي بن يوسف بن أحمد بن علوان الزرقانى المصرى المالكي وألف شرحاً بسيطاً فى ثلاثة مجلدات وتوفى سنة اثنتين وعشرين ومائة.

شهادة علماء الأمة لموطأ الإمام مالك بن أنس :

قال عمرو بن أبى سلمة " ما قرأت كتاب الجامع من موطأ مالك بن أنس إلا أتانى آتٍ فى المنام، فقال لى: هذا كلام رسول الله ﷺ حقاً" (١).

قال أبو زرعة: " لو حلف رجل بالطلاق على أحاديث مالك التى فى الموطأ أنها صحاح كلها لم يخنت. ولو حلف على حديث غيره كان حائثاً" (٢).

قال القاسمى: " أول من صنف فى الصحيح الإمام مالك ﷺ" (٣). ويقصد تصنيفه للموطأ.

قال الشافعى: " ما فى الأرض كتابٌ أكثر صواباً من الموطأ" (٤).

(٢) كتاب النجوم، وحساب مدار الزمان، ومنازل القمر :

وذكره الإمام ابن فرحون وقال: " هو كتابٌ جيدٌ مفيدٌ جداً قد اعتمد عليه الناس فى هذا الباب وجعلوه أصلاً" (٥). ويورد الذهبى: " رواه سحنون عن ابن نافع الصائغ" (٦).

(٢) كتاب السيرة :

ذكره الإمام ابن فرحون " من رواية ابن القاسم" (٧).

(١) ابن عبد البر، التمهيد لما فى الموطأ من المعانى والمسانيد، مرجع سابق، ج(١)، ص ٦٠.

(٢) ابن فرحون، مرجع سابق، ج(١)، ص ٧٣.

(٣) جمال الدين القاسمى، مرجع سابق، ص ٨٣.

(٤) ابن تغرى بردى، مرجع سابق، ج(٢)، ص ٩٦.

(٥) ابن فرحون، مرجع سابق، ج(١)، ص ٧٧.

(٦) الذهبى، سير أعلام النبلاء، مرجع سابق، ج(٨)، ص ٨٨.

(٧) ابن فرحون، مرجع سابق، ج(١)، ص ٧٧.

(٤) التفسير لغريب القرآن :

ذكره الإمام ابن فرحون وقال "يرويه عنه خالد بن عبد الرحمن المخزومي" (١).

(٥) كتاب المسائل :

ذكره الزركلي (٢). وهو مخطوط.

(٦) رسالة في القدر والرد على القدرية :

ذكرها الإمام القاضي عياض وقال "وهو خيار الكتب في هذا الباب الدالة على سعة

علمه بهذا الشأن" (٣).

(٧) رسالة في الأفضية:

قال الإمام ابن فرحون "رسالته في الأفضية: كتب بها إلى بعض القضاة: عشرة

أجزاء" (٤).

(٨) رسالة في الفتوى:

قال الإمام القاضي عياض "رسالة في الفتوى وهي مشهورةً يرويها عنه خالد بن

نزلوا ومحمد بن مطرف وهو من كبار أهل المدينة قريناً لمالك يروي عن أبي حازم وزيد بن

أسلم وروى عنه الثقات ووثقوه" (٥).

(٩) رسالة إلى الليث :

ذكرها الإمام القاضي عياض وقال: "إنها في إجماع أهل المدينة رضى الله عنهم

أجمعين وهي مشهورةٌ متداولةٌ بين العلماء" (٦).

(١) المرجع السابق، ج(١)، ص ٧٧.

(٢) خير الدين الزركلي، الأعلام، ج(٦)، ط(٣)، (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٨٩م)، ص ١٢٨.

(٣) القاضي عياض، مرجع سابق، ج(١)، ص ١٠٩.

(٤) ابن فرحون، مرجع سابق، ج(١)، ص ٧٧.

(٥) القاضي عياض، مرجع سابق، ج(١)، ص ١١٠.

(٦) المرجع السابق، ج(١)، ص ١١١.

(١٠) رسالة في الآداب والمواعظ:

ذكرها الإمام القاضي عياض وقال إنها رسالة إلى "هارون الرشيد، وهذا الكتاب وضعه مالك بن أنس أدباً للناس" (١). وقد أشار إليها أيضاً ابن النديم (٢).

ولكن كل هذه التصانيف وردت الإشارة عنها في المصادر الأولية فقط وهي غير موجودة، وهنا لم ينف الأستاذ أمين الخولي (٣):

نسبة هذه الكتب إلى الإمام مالك بن أنس رحمه الله فيذكر:

"كتابة في الفلك" النجوم وحساب دوران الزمان ومنازل القمر" لم يستبعد تأليفه له بدليل أن هذا الفن من العلوم كان موضع اهتمام العلماء في عصر مالك حتى شاع أن العلوم ثلاثة: الفقه للأديان، والطب للأبدان، والنجوم للأزمان، وقد تُرجمت كتب في النجوم في حياة الإمام مالك سنة ١٢٥ هـ ولا يبعد أن يكون مالك باعتباره أحد الأئمة المهتمين بالعلم قد اطلع عليه، ومما يشيع على قبول ذلك أن تلميذه الإمام الشافعي كان له نظر في النجوم، وقد ورد ذكره في مراجع من اعتمد عليه من المؤلفين في هذا الفن بعده وإذا ثبت وجود هذا الكتاب بين مآثورات الإمام مالك فإن ذلك يشهد له بأن اهتمامه العلمي لم يقف عند حدود الحديث والفقه، بل تناول علوم عصره وشارك بقلمه في أهم القضايا العلمية وأحداثها. أما بالنسبة لكتابه المتصل بالقرآن الكريم "التفسير لغريب القرآن" فقد قال الإمام السيوطي في ذلك: إنه رأى لمالك تفسيراً لطيفاً مسنداً. ولكن كل هذه المؤلفات التي وردت الإشارة عنها وهي غير موجودة قد يكون للعوامل التي تعرضت

(١) المرجع سابق، ج (١)، ص ١١٠.

(٢) ابن النديم، مرجع سابق، ص ٢٤٧.

(٣) أشار خير الدين الزركلي في كتابه "الأعلام" في ترجمة الإمام مالك بن أنس رحمه الله الجزء السادس، صفحة ١٢٨، أنه للأستاذ: أمين الخولي ترجمة محررة لمالك بن أنس، وهو كتاب مطبوع.

لها البلاد في أثناء الغزو التتري الجائع الذي أغرق الكتب في النهر وجعل منها جسراً يعبرون فوقه إلى الشام حتى تحول ماء النهر إلى مداد^(١).

وهذه المؤلفات تشير إلى سعة معارف الإمام مالك رحمه الله وعظيم ثقافته ونبوغه وتقدمه في فنون العلم المختلفة.

وفاته:

توفي الإمام مالك بن أنس رحمه الله سنة تسع وسبعين ومائة وهو ابن تسعين سنة وقد أجمعت المصادر على ذلك منها ابن الأثير^(٢)، عمر رضا كحاله^(٣)، الذهبي^(٤)، ابن العماء^(٥)، ابن الأثير الجزري^(٦)، وابن كثير^(٧).
ومما ذكر عند وفاته رحمه الله .

" قال محمد بن إدريس الشافعي: قالت لي عمتي - ونحن بمكة - رأيت في هذه الليلة عجباً .

فقلت لها وما هو ؟

قالت: رأيت كأن قائلاً يقول مات الليلة أعلم أهل الأرض .

قال الشافعي فحسبنا ذلك فإذا هو يوم مات مالك بن أنس"^(٨).

" قال إبراهيم بن أبي يحيى: نمت فرأيت الشمس قد كسفت وقد علت الأرض ظلمةً حتى إن الناس لا ينظر بعضهم إلى بعض .

(١) حمزة النشرتي، وآخرون، الإمام الفقيه مالك بن أنس، سلسلة شخصيات إسلامية (٧)، (القاهرة: مطابع الأهرام ٢٠٠١م)، ص ٣٧٣: ٣٧٤.

(٢) ابن الأثير (الإمام أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني، ت ٣٦هـ) الكامل في التاريخ، ج(١٥)، (بيروت: دار الفكر العربي، ١٩٧٨م)، ص ١٠١.

(٣) عمر رضا كحالة، مرجع سابق، ج(١١)، ص ١٦٨.

(٤) الذهبي، العبر في خير من غير، مرجع سابق، ج(١)، ص ٢١٠.

(٥) ابن العماد الحنبلي، مرجع سابق، ج(١)، ص ٢٨٩.

(٦) عز الدين بن الأثير الجزري، اللباب في تهذيب الأنساب، ج(١)، (بيروت: دار صادر، ١٩٨٠م)، ص ٦٨.

(٧) ابن كثير، مرجع سابق، ج(٩)، ص ١٧٤.

(٨) الأصفهاني، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، مرجع سابق، ج(٦)، ص ٣٣٠.

فقلت لرجل بجنبي: أقامت القيامة ؟

فقال: ولمَ لا تقوم، وقد مات عالم الآفاق.

قلت ومن هو قال: مالك. فانتبهت وفزعت فإذا أنا به قد مات" (١).

هذه نبذةٌ يسيرةٌ عن حياة الإمام الحافظ المحدث الفقيه مالك بن أنس، الذي قضى حياته في خدمة الحديث الشريف والفقه الإسلامي، علماً، وتعليماً، وعملاً. وإن الناظر في سيرة هذا الإمام الكبير ليرى توفيق الله يحيطه من كل جانب حيث كان سابقاً أصحابه في كل شيء، فهو أولهم في الاشتغال بعلم الجرح والتعديل، وكان أغزرهم روايةً للحديث ليس هنا من يفوقه في كثرة الأحاديث.

هذا من ناحية روايته للحديث الشريف، أما من ناحية الفقه والفضل والقدر فمالك بن أنس من لا يُبارى في ذلك، حيث بذ أقارانه في ذلك، فليس منهم من يدانيه في هذا وقد أوردنا في سيرته هذه شهادة أفضل الأئمة له بذلك.

وأما من ناحية التعليم فهو قد اجتمع له تلاميذ في كل حدبٍ وصوبٍ، وقد أوردنا بعضهم في هذه الترجمة المتواضعة.

وأما من ناحية جهوده في الحديث فقد رأينا جهوده في الكشف عن الرواة الضعيف منهم والقوى، ومن يصلح الراوية عنه، ومن لا يصلح.

فرحم الله مالك بن أنس رحمةً واسعةً فهو حقيق بهذا الدعاء. آمين.

سُحُنُون :

أسمه:

هو الإمام الفقيه الثقة الرحال الزاهد الصادق الورع الدقيق "عبد السلام بن حبيب

التنوخى، الملقب بسُحُنُون، ويكنى أبو سعيد" (٢).

(١) القاضى عياض، مرجع سابق، ج(١)، ص١٣٤.

(٢) خير الدين الزركلى، مرجع سابق، ج(٤)، ص٥.

الفقيه المالكي المتمكن العالم بأحكام الفقه ووجوه مسأله؛ قاضى قضاة المالكية ورئيس المذهب المعتمد للقضاء فى الدولة على أيامه. شيخ الإسلام فى زمانه، وحامل لواء السنة الشريفة فى أوانه إمام المالكية فى وقته.

مولده وبلدته

ولد الإمام سحنون بمدينة "القيروان، وأصله شامى، من حمص" (١)، " وولد فى شهر رمضان سنة ستين ومائة" (٢).

رحلته فى طلب العلم:

أدرك علماء العرب قديماً فائدة التنوع فى العلم ومصادر المعرفة وأهمية تلقى صنوف المعارف على أيدي وفرة من العلماء، فمن هذا المنطلق نجد الإمام سحنون قد تنقل بين العديد من الأقطار الإسلامية لطلب العلم والتبحر فى علوم الحديث الشريف والفقه اعتقاداً منه رحمه الله أن المباشرة والتلقين أشد استحكاماً وأقوى رسوخاً.

فرحل الإمام سحنون إلى "إفريقية وسمع فيها من كبار علمائها فى هذا العصر فسمع من على بن زياد والعباس بن أشرس، ورحل إلى المشرق فسمع من ابن القاسم، وابن وهب، ورحل إلى المدينة فسمع من ابن نافع ومعن بن عيسى، ورحل إلى الشام فسمع من الوليد بن مسلم، ورحل إلى مكة فسمع من ابن عيينة ووكيع بن الجراح، وحفص بن غياث وعبد الرحمن بن مهدي، ورحل إلى مصر، وتونس" (٣).

ثناء العلماء عليه:

نال الإمام سحنون شهادات رائعة صادرة عن أئمة عدول لهم قدومٌ راسخٌ فى علوم الحديث الشريف والشريعة الإسلامية وفنون المعرفة المختلفة شهدوا لإمام سحنون

(١) المرجع السابق، ج(٤)، ص ٥.

(٢) البغدادي (المؤرخ إسماعيل باشا بن محمد أمين بن مير سليم البابانى البغدادي، هدية العارفين عن أسماء المؤلفين وآثار المصنفين من كشف الظنون، تحقيق: محمد شرف الدين، رفعت بيلكه الكليسى، م(٥)، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٢م)، ص ٥٦٩.

(٣) القاضى عياض، مرجع سابق، ج(١)، ص ٣٤٠.

بالإمامة والثقة والرسوخ في أنواع المعارف المتعددة وبأن تصانيفه قد بلغت الغاية في الجودة والإتقان.

ومما يدل على غزارة حفظه وموسوعية علمه ما ذكره الإمام البستي "الإمام سحنون روى عن مالك أكثر من ثلاثين ألف مسألة وكان يفرع على مذهبه وهو الذي أظهر علم مالك" (١).

ويذكر ابن ناجي "سحنون الفقيه البارع والورع الصادق الذي اجتمعت فيه الصرامة في الحق والزهد في الدنيا والتخشن في اللبس والمطعم الذي لا يقبل من أحد شيئاً ولا يهاب الملوك شديد على أهل البدع انتشرت إمامته وأجمع أهل عصره على تقدمه وفضله رقيق القلب ظاهر الخشوع متواضعاً قليل التصنع كريم الأخلاق حسن الأدب" (٢). وهذا يدل على شدة ورعة وتقواه.

ويصفه ابن خلكان: "لُقّب - رحمه الله - باسم طائر حديد بالمغرب يسمونه سحنوناً لحدة ذهنه وذكائه" (٣).

وهذا يدل على رجاحة عقله ورأيه الصائب وتمتعه بالنقد الثاقب.

ويذكره الإمام الذهبي بأنه "مفتي القيروان وقاضياها" (٤). وهذا يدل على سبقه لعلماء عصره وبذو لأقرانه من أهل العلم والصلاح.

"قال جمد يس: لقيت أناساً بالمدينة وبمصر وبغداد من أصحاب مالك والله ما رأيت فيهم مثل سحنون علماً وعملاً. وقال يونس بن عبد الأعلى: هو سيد أهل المغرب فقال له حمديس يروي تسعة وعشرين سماعاً وما رأيت في الفقه مثله في المشرق. وقال محمد بن حارث: كان مذهب مالك بافريقية قبل سحنون والعمل به قليل ولما قدم

(١) ابن حبان (الإمام محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي، ت ٣٥٤هـ)، كتاب الثقات، م(٨)، (بيروت: دار الفكر العربي، ١٩٨٢م)، ص ٨٩٩.

(٢) القاضي عياض، مرجع سابق، ج(١)، ص ص ٣٤١: ٣٤٣.

(٣) ابن خلكان، مرجع سابق، ج(٣)، ص ١٨٢.

(٤) الذهبي، العبر في خبر من غير، مرجع سابق، ج(١)، ص ٣٤٠.

سحنون انتشر وجمع مع ذلك فضل الدين والعقل والورع والعفاف والانقباض فبارك الله فيه للمسلمين فمالت إليه الوجوه وأحبتة القلوب وصار زمانه كله مبتدأ وكان سراج القيروان^(١).

وذكره خير الدين الزركلي بأنه "القاضي الفقيه الذي انتهت إليه رئاسة العلم في المغرب"^(٢).

شيوخه:

لقد كان السلف الصالح ومنهم الإمام سحنون يتلقون العلم من أفواه العلماء مباشرةً فلا شك لدينا أن رحلات الإمام سحنون وتطوافه قد ترك بصمات واضحة على تنوع ووفرة شيوخه رحمه الله. فمن شيوخه^(٣):

- | | |
|-------------------------|-----------------------|
| ١- ابن القاسم. | ٢- ابن الماجشون. |
| ٣- ابن رشد. | ٤- ابن عبد الحكم. |
| ٥- ابن نافع. | ٦- ابن وهب. |
| ٧- أبو إسحاق الأزرق. | ٨- أبو داود الطيالسي. |
| ٩- أشهب. | ١٠- أنس بن عياض. |
| ١١- أيوب بن سعد. | ١٢- الجهلول. |
| ١٣- حفص بن غياث. | ١٤- سفيان بن عيينة. |
| ١٥- شعيب بن الليث. | ١٦- العباس بن أشرس. |
| ١٧- عبد الرحمن بن مهدي. | ١٨- عبد الله بن غانم. |

(١) القاضي عياض، مرجع سابق، ج(١)، ص ٣٤١: ٣٤٣.

(٢) خير الدين الزركلي، المرجع السابق، ج(٤)، ص ٥.

(٣) راجع في ذلك:

- ابن العماد الحنبلي، مرجع سابق، ج(٣)، ص ١٨٢.

- عمر رضا كحاله، مرجع سابق، ج(٥)، ص ٢٢٤.

- القاضي عياض، مرجع سابق، ج(١)، ص ٣٤٠.

- ١٩- علي بن زياد.
 ٢٠- معاوية الصمادحي.
 ٢١- معن بن عيسى.
 ٢٢- وكيع بن الجراح.
 ٢٣- الوليد بن مسلم.
 ٢٤- يحيى بن سليمان.
 ٢٥- يزيد بن هارون.
 ٢٦- يزيد بن هارون.
 ٢٧- يوسف بن عمر.

تلاميذه:

لقد تتلمذ على يد هذا الحبر الجليل لفيف من علماء وفقهاء المسلمين فيروى ابن خلكان: "حصل له من الأصحاب والتلاميذ ما لم يحصل لأحد من أصحاب مالك مثله وعنه انتشر علم مالك بالمغرب"^(١).

ويذكر أبو الحسن الأندلسي: "يقال إنه ما بُورِكَ لأحدٍ بعد أصحاب رسول الله ﷺ ما بُورك لسحنون في أصحابه؛ فإنهم كانوا أئمةً بكلِّ بلدة"^(٢).

ويذكر الإمام عياض: "قال ابن حارث: سمعتهم يقولون: كان سُحنون من أيمن العلماء؟ دخل المغرب، كأن أصحابه مصابيح، في كل بلدة، عُدَّ له نحو سبعمائة رجلٍ ظهوروا بصحبته وانتفعوا بمجالسه"^(٣).

ومع ذلك فقد ضنت علينا كتب الرجال والتراجم عن ذلك أسماء تلاميذ هذا الإمام الكبير رغم كثرتهم واشتهارهم بالعلم والفقہ.

مؤلفاته:

ترك لنا الإمام الحافظ سحنون العديد من التصنيفات التي أثرت المكتبة الإسلامية خاصة في مجال الفقه الإسلامي المالكي بالكثير من كتب التراث فمن مؤلفاته رحمة الله

(١) ابن خلكان، مرجع سابق، ج(٣)، ص ١٨٢.

(٢) الأندلسي (الشيخ أبي الحسن بن عبد الله بن عبد الحسن النباهي المالقي الأندلسي)، المرقبة العليا فيما يستحق القضاء والفتيا، سلسلة تاريخ قضاة الأندلس، تحقيق: لجنة إحياء التراث العربي، ط(٥)، (بيروت: دار الآفاق الجديدة، ١٩٨٣م)، ص ٢٩.

(٣) القاضي عياض، مرجع سابق، ج(١)، ص ص ٣٥٥: ٣٥٦.

(١) المدونة :

اتفقت جميعُ كتبِ الرجالِ والتراجمِ على أن "الإمام" سُحنون هو صاحب المدونة فقد صنف- رحمه الله- كتاب المدونة في مذهب الإمام مالك رضي الله عنه ، وأخذها عن ابن القاسم، وكان أول من شرع في تصنيف المدونة أسد بن الفرات الفقيه المالكي بعد رجوعه من العراق وأصلها أسئلة سأل عنها ابن القاسم فأجابه عنها، وجاء بها أسد إلى القيروان وكتبها عنه سحنون، وكانت تسمى "الأسدية"، ثم رحل بها سحنون إلى ابن القاسم في سنة ثمان وثمانين ومائة، فعرضها عليه، وأصلح فيها مسائل، ورجع بها إلى القيروان في سنة إحدى وتسعين ومائة، وهي في التأليف على ما جمعه أسد بن الفرات أولاً غير مرتبة المسائل ولا موسمة التراجم، ورتب سحنون أكثرها وبوبه على ترتيب التصانيف واحتج لبعض مسائلها بالآثار من روايته من موطأ ابن وهب^(١).

"ورجع بها إلى بلاد المغرب، وكتب معه ابن القاسم إلى أسد بن الفرات أن يعرض نسخته على نسخة سحنون، ويصلح ما بها فلم يقبل، فدعى عليه ابن القاسم فلم ينتفع به ولا بكتابه، وصارت الرحلة إلى سحنون، وانتشرت عنه المدونة وساد أهل ذلك الزمان"^(٢).

(٢) آداب المعلمين :

وهو من التصانيف القيمة التي أضافت الكثير إلى تراثنا التربوي نظراً لمعالجته للعديد من مسائل التربية والتعليم وعرضها بأسلوبٍ فقهىٍّ فأصبح مرجعاً أصيلاً وأولياً للكثير من الباحثين التربويين المعاصرين، وهو مخطوطٌ قام بتحقيقه جملة من العلماء والباحثين.

(١) ابن خلكان، مرجع سابق، ج(٣)، ص ١٨١.

(٢) ابن كثير، مرجع سابق، ج(٩)، ص ٣٢٣.

وفاته :

توفي الإمام سُحنون في "يوم الثلاثاء لتسعِ حَلَوْنَ من رجب سنة أربعين ومائتين" (١).

وقد اتفقت جميع المصادر على سنة وفاته رحمه الله. وكان سنة يوم وفاته "ثمانون سنة" (٢).

فهذه لمحة عن سيرة هذا الإمام الذي عاش للعلم والحق والخير، وترك أعظم الأثر في معاصريه وأقرانه وتلاميذه، وفي العصر الذي عاش فيه، وفي العصور التي أتت من بعده. فقد كانت حياته حافلةً بطلب العلم والذب عن سنة رسول الله ﷺ وتبواً لأرفع المناصب العلمية والدينية والترحال في طلب العلم من أقصى الأقطار الإسلامية إلى أقصاها.

فنسأل الله أن يكون قد وفقنا في بيان مآثره ومناقبه وما خلفه لنا من مصنفاتٍ ينتفع بها الباحثون في كل زمان ومكان.

ابن الحاج :

اسمه :

هو الإمام الحافظ الثقة الزاهد الورع "محمد بن محمد بن محمد العبدري، الفاسي الشهير بابن الحاج، وكنيته أبو عبد الله" (٣).

حافظ مذكورٌ ومصنفٌ مشهورٌ .

مولده وبلدته:

"وُلِدَ بمدينة فاس وهي بلدةٌ بالمغرب في أقصاه تقارب سَبْتُهُ. تقع اليوم على مضيق جبل طارق في المملكة المغربية مقابلة لمدينة طنجة، وهي مدينةٌ عظيمةٌ سكنها الصالحون

(١) ابن خلكان، مرجع سابق، ج(٣)، ص ١٨٢.
(٢) القاضي عياض، مرجع سابق، ج(١)، ص ٣٦٢.
(٣) عمر رضا كحالة، مرجع سابق، ج(١١)، ص ٢٨٤.

وعامتهم حملة القرآن على مذهب مالك بن أنس وهى على طرف الأندلس وكان منهم جماعة من أهل العلم^(١).

وقد أُحْتَلِفَ فى مولده بين المؤرخين، فذهب قومٌ إلى أن ميلاده كان "بعد الأربعين وست مائة"^(٢). ولم يؤكد عليه.

وسكت آخرون عن سنة ميلاده، وغيرهم كعمر رضا كحالة^(٣)، وخير الدين الزركلى^(٤)، وابن فرحون^(٥).

وإذا أردنا أن نحقق هذه المسألة، فإذا علمنا أنه توفى وعنده بضع وثمانين سنة^(٦) فعلى هذا يكون مولده بين عامى ٦٥٥هـ، ٦٥٨هـ.

رحلته فى طلب العلم :

سار الحافظ الفقيه أبو عبد الله بن الحاج على سيرة أقرانه فى طلب العلم فرحل إلى البلدان وجاب الأقطار الإسلامية شرقها وغربها لينهل من معين السنة النبوية من أفواه كبار حفاظ عصره وعلمائه فرحل إلى "مصر"^(٧)، "وقدم القاهرة، وسمع بها الحديث وحدث بها"^(٨)، "وسمع بالمغرب من بعض شيوخه"^(٩).

وقد اهتدى ابن الحاج رحمه الله فى رحلته فى طلب العلم بقول النبى ﷺ "من سلك طريقاً يطلب فيه علماً سلك الله به طريقاً من طرق الجنة وإن الملائكة لتضع أجنحتها

- (١) - السمعانى، الأنساب، مرجع سابق، ج(٤)، ص٣٣٨.
 - ابن الأثير الجزرى، مرجع سابق، ج(٢)، ص ٤٠٧.
 (٢) السلامى (الإمام تقي الدين أبى المعالى محمد بن رافع السلامى، ت ٧٧٤هـ)، الوفيات، تحقيق: صالح مهدى عباس بشار عواد معروف، م ١، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٨٢م)، ص١٥٥.
 (٣) عمر رضا كحالة، مرجع سابق، ج(١١)، ص٢٨٤.
 (٤) خير الدين الزركلى، مرجع سابق، ج(٨)، ص ٢٦٤.
 (٥) ابن فرحون، مرجع سابق، ج(١)، ص ٣٢١.
 (٦) السلامى، مرجع سابق، م(١)، ص١٥٥.
 (٧) عمر رضا كحالة، مرجع سابق، ج(١١)، ص٢٨٤.
 (٨) ابن فرحون، مرجع سابق، ج(١)، ص ٣٢٢.
 (٩) المرجع السابق، ج(٢)، ص ٣٢١.

لطالب العلم وإن العالم ليستغفر له من فى السموات ومن فى الأرض والحيتان فى جوف الماء" (*).

ولقد كانت الحياة العلمية فى ذلك العصر زاخرةً بشتى العلوم الدينية منها والدنيوية، وقد جمع ابن الحاج فى علمه بين علوم الشريعة المختلفة كالفقه والحديث وبين علوم العربية والآداب. حتى أصبح من كبار علماء عصره خاصةً فى رواية السنة النبوية وعلوم الفقه والشريعة فتتلمذ على يديه خلقٌ كثيرٌ وأصبحوا فيما بعد من كبار علماء الأمة الإسلامية.

مؤلفاته: ترك لنا الإمام العالم العامل ابن الحاج العديد من التأليف النافعة المفيدة منها:
(١) المدخل؛

يسمى "المدخل إلى تنمية الأعمال بتحسين النيات والتنبية على كثيرٍ من البدع المحدثة والعيوادم المنتحلة" (١).

ويذكر الإمام ابن حجر فى فضل هذا المصنف "هو كثيرُ الفوائد كشف فيه عن معائبٍ وبدعٍ يفعلها الناس ويتساهلون فيها وأكثرها مما ينكر وبعضها مما يحتمل أوله الحمد لله المنفرد بالدوام الباقي بعد فناء الأنام" (٢).
وقد "حدث به" (٣). رحمه الله.

ويذكر الإمام ابن فرحون "هو كتابٌ حفيظٌ جمع فيه علماً غزيراً. والاهتمام بالوقوف عليه متعين" (٤). وذكر فيه رحمه الله "أن شيخه أبا محمد عبد الله بن جبره أشار إلى تعليم تعليم الناس مقاصدهم فى أعمالهم فكتبه وسماه المدخل" (٥).

(* الطبرانى (الإمام سليمان بن أحمد بن أيوب أبو القاسم الطبرانى، ت ٣٦٠هـ)، مسند الشاميين، تحقيق: حمدى عبد المجيد السلفى، ج (٢)، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٨٤م)، ص ٢٢٤.

(١) عمر رضا كحالة، مرجع سابق، ج (١١)، ص ٢٨٤.

(٢) حاجى خليفة، مرجع سابق، ج (٢)، ص ١٦٤٣.

(٣) السلامى، مرجع سابق، ج (١١)، ص ١٥٥.

(٤) ابن فرحون، مرجع سابق، ج (١)، ص ٣٢٢.

(٥) حاجى خليفة، مرجع سابق، ج (٢)، ص ١٦٤٣.

وقد أجازته رحمه الله "لم أدرك حياته"^(١). وفرغ ابن الحاج رحمه الله من تصنيفه "في سابع محرم سنة اثنتين وثلاثين وسبعمائة، واختصره البيهقي"^(٢).

(٢) بلوغ القصد وأمنى فى خواص أسماء الله الحسنى

وقد أشار إليه خير الدين الزركلى^(٣).

(٢) الأزهار الطيبة النشر

وقد أشار إليه عمر رضا كحالة^(٤).

(٤) شموع الأنوار وكنوز الأسرار فى علوم الحروف وروحانيته.

وقد أشار إليه البغدادى^(٥).

ونرى أن الثلاثة مؤلفات الأخيرة هى مخطوطات لم تطبع حتى الآن وهذا على حد علمنا والله تعالى أعلم.

وإذا نظرنا إلى كتب ابن الحاج تبين أنه سار على درب القدماء من العلماء والفقهاء عند تصنيفه لهذه المؤلفات.

ثناء العلماء عليه :

نال الإمام ابن الحاج رحمه الله ثناء الكثير من علماء عصره ومن أتى بعده من المؤرخين وذلك لأن حياته كانت مليئة بالأحداث وكان مشتهراً بين الناس بعلمه وفضله.

قال عنه رافع السلامى "وكان أحدَ المشايخ المشهورين بالصلاح"^(٦).

وقال عنه ابن فرحون كان "من عباد الله الصالحين، العلماء العاملين، فقيهاً عارفاً

بمذهب؛ مالك"^(٧).

(١) ابن فرحون، مرجع سابق، ج(١)، ص ٣٢٢.

(٢) حاجى خليفة، مرجع سابق، ج(٢)، ص ١٦٤٣.

(٣) خير الدين الزركلى، مرجع سابق، ج(٨)، ص ٢٦٤.

(٤) عمر رضا كحالة، مرجع سابق، ج(١١)، ص ٢٨٤.

(٥) البغدادى، مرجع سابق، ج(٦)، ص ١٤٩.

(٦) السلامى، مرجع سابق، ج(١)، ص ١٥٥.

(٧) ابن فرحون، مرجع سابق، ج(٢)، ص ٣٢١.

ويذكر خير الدين الزركلي كان رحمه الله "فقيهاً فاضلاً"^(١).

وقال ابن فرحون "أحد مشايخ الزهد، والخير، والصلاح. صحب جماعة من الصلحاء أرباب القلوب، وتخلق بأخلاقهم، وأخذ عنهم الطريقة"^(٢).

وقد كان رحمه الله "عالماً مشاركاً في بعض العلوم"^(٣).

شيوخه:

أدرك الإمام ابن الحاج رحمه الله كثيراً من العلماء فسمع منهم وروى عنهم، وكان يطوف البلدان في طلب الحديث والفقه والعلوم، وانتقاء ما صحَّ منه، فإذا تتبعنا شيوخه الذين تلقى عنهم العلم لوجدنا منهم المصرى، الفاسى، المغربى، البصرى وغيرهم كثيراً من مختلف الأقطار الإسلامية فمن شيوخه:

١- "أبو القاسم عُبَيْد بن محمد بن عباس الإسْعُرْدِي"^(٤).

٢- "أبو محمد بن أبى حمزة"^(٥).

ويذكر الصفدى "أنه صحب جماعة من الرُّهَاد، وأرباب القلوب"^(٦) ولكنه لم يذكر أسماءهم.

أسماءهم.

تلاميذه:

تتلمذ على يد الإمام ابن الحاج رحمه الله خلقٌ كثيرٌ وروى عنه الفئام من الناس تلاميذٌ من كل حدبٍ وصوبٍ، قَدِمُوا من بلادهم يطلبون العلم على يد هذا الحَبْر الجليل وعاء العلم، وحافظ عصره فمن تلاميذه^(٧).

١- أبو الحسن على بن محمد بن الهَمْدَانِي ت ٧٣٤هـ.

(١) خير الدين الزركلي، مرجع سابق، ج(٨)، ص ٢٦٤.

(٢) ابن فرحون، مرجع سابق، ج(٢)، ص ٣٢٢.

(٣) عمر رضا كحالة، مرجع سابق، ج(١١)، ص ٢٨٤.

(٤) السلامى، مرجع سابق، ج(١)، ص ١٥٤.

(٥) ابن فرحون، مرجع سابق، ج(١)، ص ٣٢١.

(٦) السلامى، مرجع سابق، ج(١)، ص ١٥٥.

(٧) المرجع السابق، ج(١)، ص ١٥٥.

٢- أبو حفص عمر بن محمد الدمنهوري ت ٧٥٢هـ.

وفاته:

توفى الإمام ابن الحاج سنة "سبع وثلاثين وسبعمائة"^(١). وقد أجمعت المصادر على سنة وفاته.

ويذكر رافع السلامي أنه توفى "بمصر، وصُلِّيَ عليه من الغد بالقرافة، وكان يوماً مشهوداً"^(٢)، "عن نحو ٨٠ عاماً"^(٣).
وبأنه "كُفَّ بصره في آخر عمره"^(٤).

خليل :

أسمه:

هو الإمام الحافظ الفقيه "خليل بن إسحاق بن موسى، وكنيته ضياء الدين الجندي"^(٥). الإمام "العالم العامل الثاقب الذهن الأصيل البحث المحقق المشارك في فنون فنون اللغة العربية والحديث والفرائض، الفضل في مذهب الإمام مالك الزاهد صحيح النقل تخرج بين يديه جماعة من الفقهاء الفضلاء"^(٦).

مولده وبلدته:

ولد الإمام الشيخ ضياء الدين الجندي في "مدينة القاهرة حيث تولى الإفتاء على مذهب الإمام مالك"^(٧).

(١) الصفدي (صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي، الوافي بالوفيات، تحقيق: هلمون رينز، ج(١)، ط(٢)، (فيسيان دار النشر فرانز شتاينز، ١٩٦٢م)، ص ٢٣٧.
(٢) السلامي، مرجع سابق، ج(٢)، ص ١٥٥.
(٣) خير الدين الزركلي، مرجع سابق، ج(٨)، ص ٢٦٤.
(٤) عمر رضا كحالة، مرجع سابق، ج(١١)، ص ٢٨٤.
(٥) خير الدين الزركلي، مرجع سابق، ج(٨)، ص ٣١٥.
(٦) ابن فرحون، مرجع سابق، ج(١)، ص ٣٥٧.
(٧) خير الدين الزركلي، مرجع سابق، ج(٢)، ص ٣١٥.

ولم تذكر لنا المصادر الأولية لكتب الرجال والتراجم شيئاً عن سنة ميلاده فقد سكت عن ذكرها خير الدين الزركلى^(١)، وعمر رضا كحاله^(٢)، وحاجى خليفه^(٣)، وابن فرحون^(٤) فرحون^(٤)

ثناء العلماء عليه:

نال الإمام ضياء الدين الجندى ثناء الكثير من علماء عصره ومن أتى بعدهم من المؤرخين وذلك لأنه كان مشتهراً بين الناس بعلمه وفضله.

وصفه الإمام ابن فرحون بالإمام العالم العامل "كان - رحمه الله - صدرأً فى علماء القاهرة، مجمعاً على فضله وديانته، أستاذاً مُمتعاً من أهل التحقيق ثاقبَ الذهن أصيل البحث، فضلاً فى مذهب مالك، صحيحَ النقل، الزاهد المتقشف، ذا الدين والفضل، جمع بين العلم والعمل، وأقبل على نشر العلم، فنفع الله به المسلمين^(٥).

ووصف بموسوعة العلم فهو "الإمام الفقيه المشارك فى علوم العربية والفرائض والأصول والجدل"^(٦).

ووصف بوعاء العلم والفقه والتبحر فى المذهب المالكي فقد "تولى الإفتاء على المذهب المالكي"^(٧).

مؤلفاته: ترك لنا الإمام ضياء الدين الجندى العديد من المؤلفات فمن تصنيفاته رحمه الله: (١) المختصر فى فروع الفقه المالكي^(٨):

- (١) المرجع السابق، ج (٢)، ص ٣١٥.
- (٢) عمر رضا كحالة، مرجع سابق، ج (٣)، ص ٣١٣.
- (٣) حاجى خليفة، مرجع سابق، ج (٢)، ص ١٨٥٥.
- (٤) ابن فرحون، مرجع سابق، ج (١)، ص ٣٥٧.
- (٥) المرجع السابق، ج (١)، ص ٣٥٧.
- (٦) عمر رضا كحالة، مرجع سابق، ج (٣)، ص ٣١٣.
- (٧) خير الدين الزركلى، مرجع سابق، ج (٢)، ص ٣١٥.
- (٨) حاجى خليفة، مرجع سابق، ج (٢)، ص ١٦٢٨.

"وقد اختصره من جامع الأمهات لابن الحاجب، وبقي في تأليفه نيفاً وعشرين سنة، ولخصه في حياته إلى (باب النكاح)، وجمع أصحابه باقية من المسودة. وحوى المختصر أربعمائة ألف مسألة فقهية، وصار من أنفس وأعظم كتب المذهب منذ القرن الثامن الهجري، وأثنى عليه العلماء؛ فقال الشيخ العدوي الصعدي: (إن الاشتغال به أنفع من المدونة الآن)، وأضحى حجة المالكيين، حيث وعى وجمع أقوال علماء المذهب وشمل جميع أحكامه. وإن فيه كثيراً من التردد في النقول بغير بت في الحكم، وذكر الخلاف بدون ترجيح فلم يكن ذلك قصوراً من الإمام خليل - كلا وألف كلا - بل كان منه - رحمه الله استنهاضاً للهمم وإحالة على النظر والبحث تدريباً لطلاب الفقه على التحقيق والترجيح وتظهر مرتبته هو في التخريج والترجيح في كتابه (التوضيح). هذا ولم يخدم كتاب في المذهب بمثل ما خدم به مختصر خليل، حيث أقبل عليه العلماء فشرحوه وحشوا عليه حتى رادت هذه وتلك على مائة شرح وحاشية"^(١).

(٢) شرح جامع الأمهات"^(٢).

وقد "وضع الله عليه القبول وعكف الناس على تحصيله ومطالعتة وسماه التوضيح"^(٣)، و"جامع الأمهات" للإمام ابن الحاجب، عثمان بن عمر بن أبي بكر ت ٦٤٦هـ"^(٤).

(٣) مناسك الحج"^(٥).

(٤) "محذرات الفهوم فيما يتعلق بالتراجم والعلوم"^(٦).

(٥) "شرح على المدونة"^(٧).

(١) حمدي عبد المنعم شلبي، مرجع سابق، ص ٨٩.
 (٢) ابن فرحون، مرجع سابق، ج(١)، ص ٣٥٧.
 (٣) عمر رضا كحالة، مرجع سابق، ج(٣)، ص ٣١٣.
 (٤) حمدي عبد المنعم شلبي، مرجع سابق، ص ٨٧.
 (٥) ابن فرحون، مرجع سابق، ج(١)، ص ٣٥٧.
 (٦) خير الدين الزركلي، مرجع سابق، ج(٢)، ص ٣١٥.
 (٧) عمر رضا كحالة، مرجع سابق، ج(٣)، ص ٣١٣.

ولم يكمل إلى أواخر الزكاة.

(٦) "شرح على ألفيه ابن مالك" (١).

(٧) "مناقب الشيخ عبد الله المنوفى" (٢).

ومن خلال العرض السابق لمؤلفات الإمام ضياء الدين نتبين أنه رحمه الله قد أخذ في التأليف والتصنيف منذ عهد مبكر من حياته وبيدنا على ذلك تصنيفاته المفيدة ومؤلفاته الجليلة فبنظرة سريعة إلى مؤلفاته سنجد منها الحديثية والفقهية والأدبية فكان من ثمار جهوده العلمية أن انتشرت أكثر مؤلفاته في عصره وكثر تلاميذه وذيع فكره فيذكر الإمام ابن فرحون: "وكان - رحمه الله - له مجلس يقرئ فيه الفقه والحديث والعربية" (٣).

وفاته: توفى علامة عصره وإمام الفقه المالكي ضياء الدين الجندى "سنة سبع وستين وسبعمائة هجرية. يوم الخميس الثاني عشر من شهر ربيع الأول" (٤).
وقد أجمعت المصادر على ذلك منها خير الدين الزركلى (٥)، وعمر رضا كحالة (٦) وحاجى خليفة (٧).

وهناك مذهبٌ غريبٌ فى سنة وفاته أورده الإمام ابن فرحون حيث ذكر أن وفاته كانت فى سنة "تسع وأربعين وسبعمائة" (٨). وعلى ذلك لا يلتف إلى ما ذكره.
المواثق : اسمه : هو الإمام الحافظ الفقيه "محمد بن يوسف بن أبى القاسم بن يوسف العبدري الأندلسى، الغرناطى، المالكى، الشهير بالمواق، وكنيته أبو عبد الله" (٩).

(١) ابن فرحون، مرجع سابق، ج (١)، ص ٣٥٧.

(٢) المرجع السابق، ج (١)، ص ٣٥٧.

(٣) المرجع السابق، ج (١)، ص ٣٥٧.

(٤) ابن تغرى بردى، مرجع سابق، ج (١١)، ص ٩٢.

(٥) خير الدين الزركلى، مرجع سابق، ج (٢)، ص ٣١٥.

(٦) عمر رضا كحالة، مرجع سابق، ج (٣)، ص ٣١٣.

(٧) حاجى خليفة، مرجع سابق، ج (٢)، ص ١٦٢٨.

(٨) ابن فرحون، مرجع سابق، ج (١)، ص ٣٥٧.

(٩) عمر رضا كحالة، مرجع سابق، ج (١٢)، ص ١٣٣.

مولده وبلدته: ولد الإمام المواق "بغرناطة"^(١). تلك البقعة التي اشتهرت بجمالها والتي حمل إليها الفاتحون المسلمون العلم والبيان وصنوف المعرفة الدينية والدينية. هذا ولم تذكر لنا كتب التراجم شيئاً عن سنة ميلاده أو السنوات التي عاشها رحمه الله حتى توفي، فقد سكت عن سنة ميلاده عمر رضا كحالة^(٢). وخير الدين الزركلي^(٣) وغيرهما.

وجدير بالذكر هنا أن المصادر الأولية لتراجم الرجال لم تحدثنا عن نشأة هذا الإمام العظيم، والأحداث التي تعرض لها، ورحلته في طلب العلم، واشتراكه في أحداث عصره وآرائه فيها، ولم تسلط ولو بصيصاً خافتاً من الضوء على العوامل التي أثرت في تكوين فكره أو الأحداث التي أدت إلى تشكيل معارفه وثقافته.

ونرى أنه يمكن القول بأنه عندما بلغ سن النضج والإدراك بدأت رحلته في طلب العلم فأخذ يجالس الشيوخ والحفاظ والفقهاء من أهل بلده يسمع منهم ويأخذ عنهم ويستفيد من مختلف علومهم وآدابهم.

ولقد وُصف رحمه الله بـ "عالم بغرناطة، وإمامها وصالحها في وقته"^(٤). وهذا يدل على سعة علمه وتنوع معارفه وثقافته فضلاً عن ورعه وتقواه فقد كان إمام الناسكين وشيخ أهل الصلاح والورع في زمانه.

مؤلفاته: ترك لنا هذا الإمام البارع والحافظ الناقد العديد من التأليف الجليّة والتصانيف المفيدة فمن أشهر مصنفاته رحمه الله^(٥):

- (١) خير الدين الزركلي، مرجع سابق، ج(٨)، ص ٣٠.
- (٢) عمر رضا كحالة، مرجع سابق، ج(١٢)، ص ١٣٣.
- (٣) خير الدين الزركلي، مرجع سابق، ج(٨)، ص ٣٠.
- (٤) المرجع السابق، ج(٨)، ص ٣٠.
- (٥) راجع في ذلك: - عمر رضا كحالة، مرجع سابق، ج(١٢)، ص ١٣٣.
- خير الدين الزركلي، مرجع سابق، ج(٨)، ص ٣٠.
- حمدي عبد المنعم شلبي، مرجع سابق، ص ٨٩.

(١) التاج والإكليل في شرح مختصر خليل :

وهو كتابُ فقهٍ، وقابل الشارح عبارات المؤلف بما يوافقها أو يخالفها من كلام أهل المذهب كابن رشد وابن الحاجب، فإن لم يجد، بيض لعبارة المؤلف ولم يتكلم عليها بشيءٍ. وهو كتابٌ مطبوعٌ.

(٢) سنن المهتدين في مقامات الدين :

وفاته: توفي الإمام المواق سنة "سبع وتسعين وثمانمائة" (١)، وقد أجمع المؤرخون على ذلك ولا يلتفت إلى ما قاله الإمام السخاوي أنه توفي سنة "ثمان وثلاثين وثمانمائة" (٢)، فهو فهو مذهبٌ غريبٌ.

الخطاب :

اسمه: هو الإمام الحافظ الثقة الفقيه الأصولي الصوفي المحقق الفاضل "محمد بن محمد بن عبد الرحمن بن حسين المعروف بالخطاب الرعيني، وكنيته أبو عبد الله شمس الدين" (٣).

مولده :

ولد الإمام الخطاب "واشتهر بمكة" (٤). تلك المدينة التي حملت الديانة والعدالة والرحمة فكانت دُرّةً في عقد الإسلام. وكان مولده رحمه الله في "١٨ رمضان سنة ٩٠٢" (٥).

رحلته في طلب العلم :

- (١) خير الدين الزركلي، مرجع سابق، ج(٨)، ص ٣٠.
- (٢) السخاوي، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، م(٥)، ج(١٠)، (بيروت: مكتبة الحياة، دبت)، ص ٩٨.
- (٣) عمر رضا كحالة، مرجع سابق، ج(٧)، ص ٢٣٠.
- (٤) خير الدين الزركلي، مرجع سابق، ج(٧)، ص ٢٨٦.
- (٥) عمر رضا كحالة، مرجع سابق، ج(٧)، ص ٢٣٠.

كانت الرحلة في طلب العلم سنةً متبعةً عند الأئمة والحفاظ للحديث منهم والفقهاء فكانوا رحمهم الله يجوبون الأقطار الإسلامية من أدناها إلى أقصاها طلباً للحديث والنهل من معين السنة النبوية الشريفة.

والإمام الحطاب سار على سيرة أقرانه فكان لا يقنع رحمه الله بأخذ العلم عن أهل بلده فقط ولكنه رحل إلى "المغرب ومكة وتوفى بطرابلس" (١).

وقد أتاحت له هذه الرحلة المباركة أن يتبوأ مكانةً علميةً رفيعةً فضلاً عن التعمق في دراسته وحفظه للعلوم الشرعية الحديثية والفقهية والإحاطة بعلوم العربية والأدبية والتخصص فيها حتى بلغ سن النضج والإدراك فترك لنا العديد من المؤلفات العلمية في شتى الموضوعات فشهدت بنبوغه وسعة ثقافته ومعارفه.

ثناء العلماء عليه :

عُرف الإمام الحطاب بالثبوت والحفظ وسعة الإطلاع والسماع والتبحر في علوم الحديث الشريف روايةً ودرايةً والتمكن في علوم الفقه وإتقانها وسرد الآراء المختلفة ببيان المجمع عليه والمختلف فيه.

وقد وصفه الإمام حاجي خليفة بـ "العالم العارف بالله العلامة المحقق" (٢).

وعرف رحمه الله بـ "الفقيه، الأصولي، الصوفي" (٣).

ووصف بأنه من "علماء المتصوفين" (٤). وهذا يشهد له بالتقوى والورع فضلاً عن ذكره

ضمن الأئمة المشهورين والمصنفين المذكورين.

مؤلفاته :

(١) خير الدين الزركلي، مرجع سابق، ج(٧)، ص ٢٨٦.

(٢) حاجي خليفة، مرجع سابق، ج(٢)، ص ١٦٢٨.

(٣) عمر رضا كحالة، مرجع سابق، ج(٢)، ص ٢٣٠.

(٤) خير الدين الزركلي، مرجع سابق، ج(٧)، ص ٢٨٦.

لم تقتصر جهود الإمام الحطاب على الرحلة في طلب العلم والتحديث والتفقه والإسراع والتعليم بل تعدت جهوده إلى التأليف والتصنيف فظهرت ثمار جهوده العلمية في عددٍ غير قليلٍ من الآثار العلمية التي تشهد بعظيم قدره ورفعة مكانته وحفاظته الواعية وبصيرته الناقدة وعقله الراجح.

ومن مصنفاته^(١):

- (١) مواهب الجليل في شرح مختصر خليل .
- وهو شرحٌ جليلٌ يدل على كثرة إطلاع مؤلفه وسعة حفظة لقواعد المذهب وفروعه، وقد أطلال النفس في أوائله وفي كتاب الحج بصفةٍ خاصةٍ حتى لم يكن له في الشروح نظيرٌ، ولكن يبدو أن الملل قد أدرك صاحبه بعد ذلك.
- (٢) قرّة العين بشرح ورقات إمام الحرمين .
- وهو مجلدٌ واحدٌ في الأصول، مخطوطٌ، وقيل فرغ منها سنة ٩٦٥ هـ.
- (٣) تحريرُ الكلام في مسائل الالتزام.
- (٤) هداية السالك المحتاج . وهو مخطوطٌ في مناسك الحج، للمعتمر والحاج.
- (٥) تفريح القلوب بالخصال المكفرة لما تقدم وما تأخر من الذنوب.
- (٦) شرح نظم نظائر رسالة القيرواني لابن غازي.
- (٧) رسالة في استخراج أوقات الصلاة بالأعمال الفلكية بلا آلة.
- (٨) متممة الأجرومية في علم العربية.
- (٩) تحرير الكلام . وهو كتاب في الفقه.
- (١٠) تفسير القرآن: ولم ينته رحمه الله من تكملته.
- (١١) القول المتين في أن الطاعون لا يدخل البلد الأمين.

(١) راجع في ذلك:

- البغدادي، مرجع سابق، ج(٦)، ص ٢٤٢.
- خير الدين الزركلي، مرجع سابق، ج(٨)، ص ٢٨٦.
- عمر رضا كحالة، مرجع سابق، ج(١١)، ص ٢٣٠.
- حاجي خليفة، مرجع سابق، ج(٢)، ص ١٦٢٨.
- حمدي عبد المنعم شلبي، مرجع سابق، ص ٨٩.
- البغدادي، مرجع سابق، ج(٦)، ص ٢٤٢.

(١٢) القول الواضح في بيان الجوائح.

(١٣) عمدة الراويين في أحكام الطواعين.

(١٤) البشارة الهنية بأن الطاعون لا يدخل مكة والمدينة.

وفاته: توفي الإمام العالم الفقيه الحطاب سنة "أربع وخمسين وتسعمائة"^(١).

(١) البغدادي، مرجع سابق، ج (٦) ص ٢٤٢.